

فن السيرة

تأليف

الدكتور إحسان عبّاس

الجامعة الاميركية - بيروت

دار صادر
بيروت

دار الشروق
عمان

الطبعة الأولى

1996

دار الشروق للنشر والتوزيع
ص.ب ٩٢٦٤٦٣ عمان ، الأردن

Tel : 618190 / 618191 Fax : 610065

مقدمة

كنت ، ومـا أزال ، أومن بان الحـديث في السيرة ، والسيـرة الذاتية ، يتنـاول جانبـاً من الادب العربي عـامراً بـالحياة ، نـابضاً بـالقوة ،وان هـذا اللون من الدراسـة يصل أدبنـا بتاريـخ الحضارة العربية ، وتيار الفكر العربي والنفسية العربية ، لأنه صورة للتجربة الصـادقة الحيـة التي اخذنـا نتلمس مظاهـرها المختلفـة في ادبنـا عـامـة ، فنجـدهـا واضحـة في الفهم النفسي والاجتمـاعي عنـد الجـاحظ وابي حيان وابن خلدون ، ونلقـاهـا في رحلة ابن جبيـر وأحسن التقاسيم وصورة الارض ، ونستقريها في سخرية المـازني والشدياق وثورة جبران والمعـري ، فاذا جئت اليـوم اعرض سيـرة صلاح الدين لابن شـداد ، أو سيرة ابن طـولون للبلوي ، أو الصـراع الـروحي في المنقـذ من الضـلال ، أو الصـلابـة في نفسيـة ابن خلدون ، أو الشجـاعة المؤمنـة بمصيرهـا في مذكـرات أسامـة ، فانما أحاول أن أنفذ الى جانب من تلك التجربـة الحية ، وأضـع مفهوماً أوسع لمهمة الادب ؛ ذلـك لأن الأشخاص الـذين يصلوننا

بأنفسهم وتجاربهم هم الذين ينيرون أمامنا الماضي والمستقبل ، أما اولئك الذين يذهبون بنا في شعاب من الصنعة «الرسمية» فانهم يستنزفون جهودنا على غير طائل ، وينقلون تفاهة الماضي الذي عاشوا فيه الى حاضرنا الذي نرجوه لما هو أجدى .

فوراء هذه الفصول التي كتبتها رغبة ذاتية مخلصة في ان أعرض موضوعاً أحببته وعشت في تجارب اصحابه مدة من الزمن . ولشغفي بتلك التجارب ، استكثرت من الأمثلة ، وخاصة حين عرضت للسير الذاتية في الادب العربي ، وانما اريد لأبقي تلك الامثلة حية في النفوس ، ولأقرب الشقة بين القارىء ومصادر يظنها صلبة عند المضغ ، عسرة على الهضم . وقد بنيت هذه الدراسة على الاختيار فلم اثقل على القارىء بتصنيف معاجم السير وكتب الطبقات ، فهذا على انه خارج عن مفهوم السيرة الفنية ، انما مكانه كتب الفهارس العامة ، والتعاليق الخاصة عن الشيوخ . واقتصرت على كتب وامثلة يسهل الحصول عليها ، لعلمي بان المخطوط من السير ، وهو قدر كبير ، لا يتيسر لكل قارىء .

ومزجت بين العرض التاريخي والتحليل غير المستقصي لبعض النماذج ، مقسماً نظرتي في السير بين الادب العربي والادب الغربي - والانجليزي خاصة - لا طلباً للمقارنة وانما من اجل شمول النظرة وتنويع الامثلة وتطعيم الدراسة .

على ان مثل هذه الدراسة المزدوجة خليق أيضاً ان يبعث على المقارنة الصحيحة . فلا ضير في ان يستنتج القارىء : تفوق الآداب الغربية على الادب العربي في فن السير والتراجم

الشخصية فذلك حافز على العمل ، ولا بأس ان يحد ان خير سيرة كتبت في ادبنا الحديث انما كتبها من كان مغموس النفس في ادب الغرب لا من كان ممسوحاً به في الظاهر ؛ ولا ينقص من قدرة السيرة لدينا اذا عرفنا ان خط التطور في السيرة بالغرب اوضح منه في الشرق ، خضوعاً للتغير في القاعدة الاجتماعية ؛ فبعد النهضة وبزوغ الروح الديمقراطية اخذ الكتاب ـ مثلاً ـ يكتبون سيرة العاديين من الناس ولا يكتفون بكتابة سير الملوك والقديسين . ولكن البيئة العربية لم تكن ، فيما يبدو ، بحاجة الى هذا التطور ، فان مؤرخاً مثل ابن زولاق ، يكتب سيرة سيبويه المصري ، وهو أحد عقلاء المجانين ، بنفس الاهتمام الذي يكتب به سيرة ابن طولون والاخشيد في دور مبكر من تاريخ السيرة .

واني لأعلم ان الاتجاه في الحياة المعاصرة ، اخذ يتشكل نحو الجماعة بخطى سريعة ، وهذا يقلل من تقديس الابطال ، ويخمل دور الفرد في الحياة ، ويغير مفهومات الناس عن قيمة ذلك الدور ، ومن ثم تقل الرغبة في السير عامة ، ولكننا نسيء الى روح الجماعة اذا اعتقدنا أن التجربة الفردية لا قيمة لها ، فقد تزول عبادة الابطال من النفوس ، وقد يفقد الفرد معنى التفرد الانساني ، ولكن شيئاً واحداً لا يزول هو هذه التجارب الحية ، وطريقة التعبير عنها ؛ وكل ما سيحدث ان المفهومات الجماعية ستنعكس على تلك التجارب وتصبغها بلون جديد .

فإن استطاعت هذه الفصول ان تحبب الى القراء العودة الى كتب السير والتراجم الذاتية ، والتوفر على قراءتها ، فقد ادت مهمتها ، وان استطاعت ان تصل بينهم وبينها بسبب ، ولو كان

سبباً من المعرفة العابرة ، فإنها ايضاً لم تذهب عبثاً ولم يكن الجهد فيها مضيعاً .

بيروت في اول حزيران (يونيو) ١٩٥٦ — **احسان عباس**

١
تاريخ السير عند المسلمين

القدرة على الاحساس بالتاريخ ، كسائر المزايا الانسانية ، موطن للتفاوت بين الافراد ، ومجال تتباين فيه الجماعات والامم . وقد يقنعنا اشبنجلر Spengler[1] وهو يحاول ان يثبت هذه الميزة لأمة كالمصريين القدماء ، وينفيها او يقلل من أثرها في عالم الحضارة الكلاسيكية - اليونانية والرومانية ؛ فالأمة التي تحرق جثث رجالها ، ولا تعنى بتسجيل اعمالهم ، واذا مضى على وفاة احد عظمائها ستون سنة لم تستطع ان تتحقق إن كان ذلك العظيم شخصية تاريخية او خرافية ، لهي أمة - فيما يراه اشبنجلر - ضعيفة الاحساس بالتاريخ ؛ كذلك كانت الامة اليونانية تتخذ تماثيلها من ابطال الاساطير ، ولم يحاول اي عظيم فيها ان يكتب مذكرات تعين عينه الداخلية على تركيز شيء من وجوه التجربة ، فلم يحدثنا سقراط نفسه عن حياته الذاتية بشيء ذي قيمة ، وليس عند افلاطون تطور واعٍ للأفكار والمبادىء ، وكتبه

(١) Spengler : The Decline of the West, vol, 1, pp. 13, 14

ليست الا نظرات متباينة من زوايا مختلفة . اما الجماعة التي تعيش في ماضيها ومستقبلها وتدور حياتها على التخليد والتأبيد ، وتسجل سير رجالها على الجدران وفي اوراق البردي وتتخذ مادة تماثيلها من حجارة شديدة الصلابة كالبازلت والجرانيت ، فإن احساسها بالتاريخ عميق ودقيق .

ويرد مؤرخ آخر[1] هذا الرأي وينكر الاحساس الدقيق بالتاريخ عند المصريين القدماء لانهم كانوا يتصورون عالمهم ثابتاً لا يتغير ، انبثق من يد الاله خلقاً سوياً كاملاً فلم تعد الاحداث التاريخية فيه الا اهتزازات سطحية في نظام مقرر مستقر ، وكل شيء في الحضارة المصرية من تأليه للحيوانات والملوك ، ومن اهرام وتحنيط ، ومن أمثال وحكم وأشكال من الشعر والفن ـ كل شيء من هذه المظاهر الحضارية يدل على ان الثابت كان في نظرهم هو الشيء الهام الحافل بالقيم ، وان ليس من قيمة للماضي والمستقبل الا بمقدار تجسد الحاضر لهما .

غير ان الخلاف بين العلماء في تمثل الاحساس بالتاريخ عند أمة واخرى ، لن يطمس حقيقة هامة ، وهي ان ذلك الحس التاريخي هو الاب المنجب للسير يوم كانت السير جزءاً من التاريخ ، ويوم كانت حياة الفرد تمثل جانباً هاماً من تصور الناس للتاريخ ، وايمانهم بان الفرد هو الذي يكيف الاحداث ويرسم الخطط ، ويقوم بالتفكير والتنفيذ ، وتتضاءل الى جانبه ـ أعني جانب الفرد العظيم ـ كل حقيقة ارضية أخرى .

ففي احضان التاريخ ـ اذن ـ نشأت السيرة وترعرت ، واتخذت سمتاً واضحاً ، وتأثرت بمفهومات الناس عنه على مر

---

(١) Frankfort, H. : The Birth of Civilization pp. 29 - 21

العصور ، وتشكلت بحسب تلك المفهومات ، فكانت تسجيلا للأعمال والاحداث والحروب المتصلة بالملوك عند الصينيين والمصريين والاشوريين ، وكانت تفسيراً لبعض المبادىء السياسية عند فلوطارخس Plutarch في كتابه عن عظماء اليونان والرومان ؛ وربما نجح فلوطارخس في السيرة نجاحاً أوفى لو انه قلل الالتفات الى تصوير حقبة كاملة وزاد من اهتمامه بحركات الاشخاص أنفسهم .

حتى اذا تغيرت النظرة الى التاريخ واصبحت له فلسفة خاصة ، أخذ بعض الباحثين المحدثين يتسائل : أحقاً ان السيرة جزء من التاريخ ؟ وقد أنكر الاستاذ كولنجوود[1] Collingwood اعتبار السيرة كذلك ، لانها تفقد القاعدة الصحيحة التي يقوم التاريخ عليها ، فحدود السيرة هي الاحداث البيولوجية الواقعة بين ولادة شخص وموته ، من طفولة ونضج وامراض وغيرها ، فهي صورة للوجود الحيواني الجسماني ، وقد يرتبط بها كثير من العواطف الانسانية ، ولكن هذا كله ليس تاريخاً . والى مثل هذا يذهب توينبي[2] Toynbee أيضاً فهو يخرج من دائرة التاريخ ما يتصل بالسير الذاتية كاعترافات القديس اوغسطين وروسو ، او حياة الملكة فكتوريا لستراتشي ويقول : ان هذه الكتب تشتبك بالتاريخ لانها تدور حول أناس لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعية ، فللقديس اوغسطين مثلاً أثره العميق في الكنيسة المسيحية ، ولافكار روسو اثر في نقل العالم الحديث الى عالم احدث ، وحيوات هؤلاء الناس هامة في نظر الآخرين ، لما كان لهم من ميزة تاريخية وميزة فردية . فاذا علقنا التاريخ بالسيرة وقعنا في الخطأ

(١) The Idea of History, p. 304

(٢) A Study of History , vol. I. pp. 447 - 48

من حيث الطريقة . ويثني توينبي على ما حققه ليتون ستراتشي في سيرة الملكة فكتوريا لانه استطاع ان ينتزع تاريخها الفردي من حياة العصر الذي عاشت فيه .

على أنّا اذا استبعدنا هذه النظرة الحديثة في فهم التاريخ ، وجدنا ان السيرة كانت من ناحية عملية تاريخاً في نشأتها وغايتها ، واننا حين نريد ان نقيسها بمقياس جديد نستطيع ان نقول[1] : كلما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المحتمع ، وتعرض أعماله متصلة بالاحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها فان السيرة - في هذا الوضع - تحقق غاية تاريخية ؛ وكلما كانت السيرة تجتزىء بالفرد ، وتفصله عن مجتمعه ، وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى ، وتنظر الى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة ، فان صلتها بالتاريخ تكون واهية ضعيفة .

وكثيراً ما ابتعدت السيرة عن هذا الاصل التاريخي ، حين اصبحت غايتها تعليمية أو اخلاقية . وقد تمخضت الاتجاهات الدينية - والزهدية منها بوجه خاص - عن هذا الانحراف بالسيرة ، فكتابة سيرة القديس انتوني ، او سير الاباء في صحراء مصر ، او سيرة القديسة كولومبا او غيرها من القديسات والقديسين انما كانت تمليها غايات اخلاقية خالصة . وقد كثر هذا اللون من السير في ادب اوروبا المسيحية بالقرون الوسطى حتى غلب على ما عداه . على ان هنا موطناً يحسن التنبه له وهو ان علم الاخبار - أو التاريخ نفسه - كان في القرون الوسطى يخدم غاية خلقية حتى عند مؤرخ شامل النظرة عميق الفلسفة كابن خلدون ، فان الغاية

---

(١) Shotwell : The History of History, p. 7

من التاريخ عنده هي الكشف عن القدوة الحسنة، وتجنب المزالق والاعتبار بأخطاء الماضي . وكذلك هي غاية التاريخ عند رجل يعكس الاثر الديني العميق مثل ابن حزم ، فهو ينصح المتعلم بقراءة التاريخ ، «ليقف على حمد المتقين للفضائل فيرغب فيها ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها»[1] ؛ وتلك هي الغاية التي يصادفها كل من يطالع «الاعلان بالتوبيخ» للسخاوي حيث جمع المؤلف مقدمات الكتب التاريخية التي يتحدث فيها المؤرخون عن حد التاريخ وغاياته وفوائده ، ويكفي ان أنقل هنا قول ابن الجوزي في مقدمة شذور العقود : «ان التواريخ وذكر السِّير راحة للقلب وجلاء للهم وتنبيه للعقل فانه . . . إن شرحت سيرة حازم علمت حسن التدبير ، وان قصت قصة مفرط خوّفت من إهمال الحزم»[2] . وفي قول ابن الجوزي دلالة دقيقة وهي اعتقاده ان التاريخ ليس الا مجموعة متنوعة من السير .

ولم تكن الغاية الخلقية معدومة في نشأة التاريخ وسير المسلمين ؛ فان القرآن الكريم - وهو الذي عمق الاحساس التاريخي عند العرب حين قص عليهم قصص الامم الخالية ، وحين وصلهم بالامم وجعل تاريخ الخليقة مجالاً لنظرهم - إن القرآن حين فعل ذلك كله ، كان يهدف الى اثارة العبرة في نفوسهم ؛ ولكن من المدهش حقاً ان هذه الغاية الخلقية كانت اضعف المظاهر حين بدأ المسلمون بكتابة السير ، وقد بدأوها بكتابة سيرة الرسول ، وكان هذا البدء يشير الى درس اخلاقي عميق في حياتهم ، لو شاءوا ان يتخذوا سيرة الرسول لتلك الغاية

(١) رسائل ابن حزم : ٧١ .
(٢) الاعلان : ٢١ .

ولكنهم لم يفعلوا بل كتبوا سيرته تحت مؤثرات اخرى ، نفرد منها بالتمييز عاملين كبيرين : الاول ان سيرة الرسول جزء من السنة ، فهي والحديث مصدران هامان من مصادر التشريع ، ومنهما تستفاد الاحكام ، ولذلك فلا بد من جلائها في دقة بالغة ، لكي تكون اعماله ـ الى جانب اقواله ـ مشرعاً واضحاً لرجال الشريعة واهل الافتاء والقضاء. والثاني : ان المسلمين كانوا قد ورثوا نظرة الجاهلية الى التاريخ ، وهي نظرة قائمة على «الايام» وطبيعة الحرب وشؤون القتال ، ولذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء ، بمغازي الرسول ، وتصوير ذلك الدور الحربي الذي ادى الى انتصار المسلمين في النهاية ، ولم يكن محض تقليد لنظرة الجاهليين بل كان في مستلزمات الجماعة الاسلامية ما يؤيده ويدعو اليه ذلك لأن الفتوحات الاسلامية التي انبثقت عن انتصار الاسلام في الجزيرة ، كانت في حاجة الى سند من سنة الرسول في هذا المجال : كيف يعامل الاسرى والنساء والاطفال ويقسم الفيء ، وهل يروى عن الرسول ما يوضح فنون الحصار ، وهل تبيح الاعمال الحربية قطع الشجر وتخريب الزروع وقطع المؤن ليلجأ العدو الى التسليم ، وماذا فعل الرسول بالاقطاعات ، وعلى أي شيء من الاحكام تحتوي كتبه التي كتبها لوفود العرب جماعات وأفراداً ؟ كان المظهر الاكبر للاسلام هو الجهاد ، واذن فلا غرابة اذا رأينا «السيرة» على يد موسى بن عقبة وابن شهاب الزهري وغيرهما ثم على يد ابن اسحاق وريث كتاب المغازي الاولين تسجيلاً دقيقاً للمعارك الحربية وما دار فيها من فنون .

وبتأثير العاملين معاً ، عدت السيرة جزءاً من الحديث تخضع

لاحكام الاسناد خضوعاً دقيقاً ، فهي على هذا ليست رواية منطلقة مسترسلة ، ولكنها روايات متفرقة مقيدة ؛ يجمعها موضوع واحد ، ويعوق الاسناد رواتها عن التفسير والتحليل ، لان جهد كاتبيها منصرف الى الصدق في الخبر ؛ ولسنا بسبيل التحدث عن أثر الحديث في طريقة التأليف عند المسلمين او في اتجاهاتهم ودراستهم ، وانما يستطيع الباحث ان يشير الى ان الاعتماد على الاسناد ظل بالغ الاثر في تلك الكتب التي ألفت عن الرجال وهي كتب الطبقات والتراجم ، التي يمكن ان تعد بحق أغزر نوع من المؤلفات عند المسلمين ، وربما لم يتح لأمة اخرى ان تعنى بتأليف المعاجم عن الرجال كما عني المؤلفون المسلمون بها ، وتنوعت تلك الكتب وتعددت على مدى العصور حتى أصبح حصرها عبئاً معجزاً . فهنالك معجمات تفرد اصحاب كل علم من نحو وأدب وشعر وفقه وحديث وتصوف وقراءة ،وتفرد أهل كل مذهب من شافعية وحنفية ومالكية وحنابلة ، ومعجمات محصورة في البلدان كتاريخ بغداد للخطيب وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ اصفهان لأبي نعيم وليست هذه التواريخ الا تراجم للرجال المشهورين من علماء كل بلد . وهناك الكتب المتسلسلة التي يذيل بها التالي على عمل من تقدمه فيتيمة الدهر ذيل على البارع ، ودمية القصر ذيل على اليتيمة ، والخريدة ذيل على الدمية ؛ وهناك سلسلة في علماء الاندلس تبدأ بحوزة المقتبس للحميدي وتتلوها بغية الملتمس للضبي ثم الصلة لابن بشكوال فالتكملة لابن الابار وتكملة التكملة وهكذا . وهذه الظاهرة ـ اي اتصال العمل في حقل واحد ـ قلّ ان تجد لها مثيلاً الا في بعض التاريخ الكنسي عند المسيحيين . ومن طرائف الاندلس ان عائلة واحدة هي عائلة

بني سعيد توارثت صنع كتاب واحد هو كتاب «المغرب» في ترجمة رجال الاندلس بعد ان وضع الحجاري اصوله الاولى .

وقد بدأ ابن سعد التقسيم البلداني في الطبقات الكبير حين ترجم[1] للصحابة وكبار التابعين حسب الامصار التي لحقوا بها او عاشوا فيها ؛ ونظرة واحدة الى كتابه او الى تاريخ بغداد ، وتاريخ اصفهان تدل على ان القوة الموجهة لهذه التراجم هي السنة عامة ـ او علم الحديث خاصة .

هذه لمحة صغيرة جداً عن انشغال المسلمين بكتب الطبقات والتراجم ، وهي معاجم للسير ، تطول وتقصر وربما تضاءل الخبر فيها الى جانب الاسناد . غير ان السير المستقلة ـ وهي الموضوع الذي يهمنا في هذا المقام ـ تخلصت في وقت مبكر من أثر الاسناد ، وهذا هو ما فعله ابن اسحاق في السيرة ، ولذلك حلَّ عليه غضب مدرسة المدينة يومئذ وعلى رأسها مالك بن أنس ، فقد وسع ابن اسحاق المجال للشعر المنحول وغير المنحول ، واتهمه النقاد بانه افسد الشعر وقبل في نطاق السيرة روايات عن أهل الكتاب وكان يسميهم اهل العلم الاول[2] وحاول ان يتخلص من الاسناد ، وبالجملة كان ابن اسحاق صورة للمؤرخ الذي لم يستطع ان يتحلل من طبيعة القصص الجاهلي والايام ، فجاءت السيرة لوناً جديداً في التأليف ،واصبحت هي المصدر الاول عند

---

(١) استعملت كلمة ترجمة في هذه الدراسة مرادفة لكلمة سيرة . وقد الفت كتب مستقلة عنونت بهذه الكلمة في سير بعض الأشخاص واخبارهم مثل « ترجمة البلقيني » « وترجمة السلفي » وكتب السيوطي ترجمة النووي والبلقيني في أربع ورقات وربما كانت الترجمة تشير هنا الى السيرة الموجزة .

(٢) ابن النديم : ٩٢ .

المسلمين لفهم حياة الرسول وأعماله . ونستطيع ان ندرك قيمة ابن اسحاق في تاريخ السير عند المسلمين اذا نحن عرفنا ان ما كتب بعده لم يختلف كثيراً في جوهره عما كتبه . وقد تعد سيرة ابن اسحاق ، والسيرة التي بنى منها ابن سعد الجزأين الاولين من كتاب الطبقات ، ومغازي الواقدي ، والسيرة التي كتبها البلاذري في أول كتابه «انساب الاشراف» ـ اساساً للمعلومات المقررة المقبولة عن حياة الرسول واعماله ، أما ما كتب بعد ذلك ، فانه كان في أكثره جمعاً لروايات مختلفة او قبولاً لبعض الاساطير المتأخرة ، وربما كان ايضاً شرحاً لبعض الالفاظ والمناسبات ، او نظماً لاحداث السيرة او تلخيصاً لها . فقد كان كتاب السهيلي «الروض الانف» شرحاً للسيرة ، وكتاب «السيرة الحلبية» مجالاً للأساطير التي نشأت في الايام المتأخرة ، وكتاب سيرة ابن سيد الناس تركيزاً للمعلومات الهامة ، وضبطاً للأعلام واسماء الاماكن ، وامتاع الاسماع للمقريزي تلخيصاً لجميع «احوال الرسول» ولكنه تلخيص رجل عارف بحدود موضوعه وان لم يسلم فيه من المآخذ . وقد اضفت الكتب المتأخرة نوعاً من التقديس على شخصية الرسول لا يلمح في المصادر الاولى ، ويظهر الرسول في اكثر الروايات المبكرة كما صوره القرآن «قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً» ، ثم انصرف الكاتبون في السيرة الى تدوين دلائل النبوة وشمائل النبي ، وبذلك أخذت العناصر التاريخية تتضاءل امام الغايات الخلقية في كتابة السيرة ، واتجه كتاب «الدلائل » من أمثال ابي نعيم والبيهقي ، ومؤلفو اعلام النبوة كالسجستاني والماوردي الى اثبات أكثر ما يمكن من المعجزات ونسبتها للنبي :

وتستطيع ان تقول ان هذا الاتجاه حدث تحت ضغط اتجاهات جديدة في العالم الاسلامي ، وفي مقدمتها تلك النزعة الزهدية التي ادت الى التصوف ، فقد اصبح الرسول هو الزاهد الاعظم ، ولم يقف الامر عند هذا الحد بل اصبح عند المتطرفين من الصوفية هو «الكلمة» ـ خلق اول كل شيء ومن اجله خلق كل شيء ـ وتمثل كل فريق شخصيته من خلال المعتقدات التي يدين بها ، ولم تبق شخصية الرسول على وجه قريب مما صورته السير الاولى ، الا عند المتمسكين بالحديث ، فانهم على شعورهم بعظمته ، ظلوا ينظرون اليه من خلال ما صح من الاحاديث .

ويتبين لنا ان الزمن رفع الغاية الخلقية الى موضع الصدارة ، فأصبحت السير تكتب بدافع من النزعات الاخلاقية ، وعلى مر العصور ستجد أن جانباً من السير قد أصبح مجموعة من الحكم والامثال والاعمال الفاضلة التي تصدر عن احد الناس ، وتقترن الفضيلة في هذه السير بالزهد ، ولذلك فان اوائل السير التي كتبت تناولت امثال شخصية عمر بن عبد العزيز ومالك بن دينار ؛ تأمل سيرة عمر بن عبد العزيز مثلاً ، وهو رمز كبير للتقوى والزهد في العالم الاسلامي ، تجد ان كثيرين قد توفروا على كتابتها في العصور المختلفة فأفردها بالتأليف بقيّ بن مخلد ، والآجري وابن عبد الحكم وعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ، وابن الجوزي والذهبي[1] . وقد اصبح هذا النوع من السير مجموعة من «المناقب» والاقوال ، يتأدب بها المتأدبون ، ويستغلها الواعظون في استمالة القلوب الى الخير .

---

(١) الجواهر والدرر للسخاوي ص ٥١١ في Mus. Historiography .

وكثيـر من هذه السيـر ، حين فقد العنصـر التاريخي بـانتـزاع الفرد من مجتمعه ، وتصوير حياته «الجسمية والروحية» من مولـده الى وفاته ، لم يتشح بالعنصر الادبي الا قليلاً ، وظلّ اخباراً فردية محدودة اقرب الى طبيعة الاخبار الخـاصة التي يـراد منها الفـائدة العامة . وبين يدينا من امثلة هذه السير ، «سيرة الحسن البصري» لابن الجـوزي ، فهو كتـاب خلاصتـه ما قـاله الحسن من مـواعظ ابتـداء ، وما أجـاب به على مـا وجه اليـه من أقوال أو مـلاحظ أو اسئلة . ولـو نـزعت اسم الحسن ووضعت في مكــان اسمـه ابن سيرين أو مالـك بن دينار ، أو أبـا حازم الاعـرج لصح ذلـك لأن المقصود هو التأثير في الناس بهذه الاقوال دون نظر الى شخصيـة الحسن ، أو الى مكانه من عصره . ولم تفقد هذه السيرة كل ميزة بفقدانها للوشيجـة التاريخيـة والادبية ، فـان كثير منهـا ظلّ يحقق الغاية الادبية عن طريق التأثير الايحائي ، فكأنـه كان بـذلك اكثـر تشبثـاً بالقيمـة الادبية من سـائر ادب الـوعظ كالخـطبـة والقصيـدة الحكيمـة ، لان مثل هـذه الانـواع ظـل جـافيـاً في شكله الادبي المصطنع ، تنقصه القدرة على الايحاء .

وليس معنى هذا أن اللون التاريخي من السيـرة قد انقـطع ، بل الفضل في بقائه لـلاحساس القـوي بالتـاريخ ، ولتلك النـزعة الـدنيويـة التي حالت بين المؤرخ وبين ان يصبـح واعظاً . وظلت السيرة التاريخية تمثل اقـوى نوع من السيـر عند المسلمين ، امـا السيــرة ذات الـطابــع الادبي ، فقـد بقيت مهملة لم تعــالجهـا الاقـلام ، وان المرء ليؤسفـه ان يمضي عن كتـاب كبـار من ذوي الاحساس الدقيق بـالشخصيات والاحـداث والتجارب ، فـلا يجد لهم اثراً واضحاً متميزاً في هذه الناحية . فقد مرّ الجاحظ عن هذا

اللون من الادب دون ان يعالجه ، ولم يقف ابو حيان التوحيدي عنده الا قليلاً . وكلا الرجلين كان نافذ البصر في طبائع الناس وأحوال المجتمع ، أما الجاحظ فانصرف الى الحكايات التصويرية لنواحي الاخلاق والسلوك في جانبي الاستقامة والشذوذ ، وأما ابو حيان فاكتفى «بالرسائل الصغيرة» في ترجمة الاشخاص ، منتحياً اسلوباً فنياً حيوياً عامراً باللفتات الدقيقة ، اسلوباً ربما لم يرزق مثله احد من قبله أو من بعده قوة وأصالة وجمالاً . وفضلاً عن هذا كله كان ابو حيان يتفرد بميزتين : الاولى ذلك الخيال اللازم لربط أجزاء السيرة في وحدة كاملة ، وهو خيال يضع الكلمة اللازمة والحوار الضروري في كل موقف اذا قصَّر الواقع ، ولا يهتم بالصيغة الاصلية للخبر الابمقدار . وهي مقدرة قصصية لا تستغني عنها السيرة حين يراد لها ان تكون ادبية . واما الميزة الثانية فهي فهمه الدقيق لموقف كاتب السيرة في عدم تحيزه وفي ميله دائماً الى الانصاف . وهذا اصل هام صوره ابو حيان بدقة حين سأله الوزير ابن سعدان ان يحدثه عن اخلاق الصاحب ابن عباد ومذهبه وعادته فقال ابو حيان وكانت آماله قد خابت عند الصاحب ورجع ناقماً عليه مشيعاً لمساوئه : «اني رجل مظلوم من جهته وعاتب عليه في معاملتي وشديد الغيظ لحرماني وان وصفته أربيت منتصفاً ، وانتصفت منه مسرفاً فلو كنت معتدل الحال بين الرضى والغضب أو عارياً منهما جملة ، كان الواصف اصدق والصدق به اخلق»[1] وهذا كلام حقيق ان يجعل اساساً من الاسس الضرورية في كتابة السير .

---

(١) الامتاع ١ : ٥٣ - ٥٤ .

غير ان ابا حيان حين كتب «مثالب الوزيرين» ، وهو اقرب كتبه الى السيرة الادبية ، لم يستطع ان يخنق صوت الحقد والغيظ في نفسه ، واذا كان قد حاول شيئاً من الانصاف والاعتذار فقد اخفق في ان يمحو من الاذهان تحيزه السافر . وحين تحدث عن الصاحب في «الامتاع» رسم له صورة هي الغاية التي يطمح اليها كتاب السير ، ومع انها اعلق بباب الذم الا ان سمة الانصاف لائحة عليها . قال يصور جانباً من شخصية الصاحب[1] :

«قلت : ان الرجل كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كل ادب خفيف اشياء ، واخذ من كل فن اطرافاً . والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب ، وهو شديد التعصب على اهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس عنده بالجزء الالهي خبر ، ولا له فيه عين ولا أثر ، وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ويقول الشعر ، وليس بذاك ، وفي بديهته غزارة ،واما رويته فخوّارة ، وطالعه الجوزاء والشعرى قريبة منه ، ويتشيع لمذهب ابي حنيفة ومقالة الزيدية ، ولا يرجع الى الرقة والرأفة والرحمة ، والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبسطته . شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذيء اللسان ، يعطي كثيراً قليلاً (أعني يعطي الكثير القليل) مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب بعيد الفيئة قريب الطيرة ، حسود حقود حديد . وحسده وقف على اهل الفضل ،

(١) الامتاع ١ : ٥٤ وما بعدها .

وحقده سار على اهل الكفاية ، اما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ، واما المنتجعون فيخافون جفوته . وقد قتل خلقاً واهلك ناساً ونفى امة ، نخوة وتعنتاً وجبراً وزهواً ، وهو مع هذا يخدعه الصبي ويخلبه الغبي ، لان المدخل عليه واسع ، والمأتى اليه سهل ، وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أُعار شيئاً من كلامه ، ورسائل منثوره ومنظومه . فما جبت الارض اليه من فرغانة ومصر وتفليس ، الا لاستفيد من كلامه وافصح به واتعلم البلاغة منه . لكأنما رسائل مولانا سور قرآن ، وفقره فيها آيات فرقان ، واحتجاجه من ابتدائها الى انتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم في واحد ، وابرز جميع قدرته في شخص . فيلين عند ذلك ويذوب ويلهى عن كل مهم له ، وينسى كل فريضة عليه ويتقدم الى الخازن بأن يخرج اليه رسائله مع الورق والورِق ، ويسهل له الاذن عليه بالوصول اليه والتمكن من مجلسه ، فهذا هذا .

ثم يعمل في اوقات كالعيد والفصل شعراً ويدفعه الى ابي عيس المنجم ويقول : قد نحلتك هذه القصيدة ، امدحني بها في جملة الشعراء وكن الثالث من الهمج المنشدين ، فيفعل ابو عيسى - وهو بغدادي محكك قد شاخ على الخدائع وتحنك - وينشد فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ووصفه بلسانه ، ومدحه من تحبيره ، أعِدْ يا ابا عيسى ، فانك - والله - مجيد ، زه ابا عيسى والله ، قد صفا ذهنك وزادت قريحتك وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الاول حين انشدتنا في العيد الماضي ؛ مجالسنا تخرج الناس وتهب لهم الذكاء وتزيد لهم الفطنة وتحول الكودن عتيقاً والمحمّر جواداً ، ثم لا يصرفه عن مجلسه الا بجائزة سنية

وعطية هنية ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لانهم لا يعلمون ان ابا عيسى لا يقرض مصراعاً ، ولا يزن بيتاً ولا يذوق عروضاً . . . . »

وواضح ان ما في هذه القطعة من براعة انما يقوم على التعليل والحوار ، والتدقيق في رسم اجزاء الصورة ، وفي ضروب من الايهام بأن الكاتب ينقل الواقع ولا يعدوه . واذا كان فيها من عيب فهو نظرتها الى الانسان في صورة ثابتة لا تطور فيها ، وانما يأتيها هذا العيب لانها قطعة لا ترجمة كاملة . وهي تعلو في نظرنا بهذه المقدرة التصويرية اذا نحن قارناها بلون ادبي حاول كتاب التراجم امثال الثعالبي والباخرزي والعماد الاصفهاني ان ينتهجوه ، فأفسدوا الترجمة بالتكلف للبلاغة ، ولنمثل على ذلك بقول الباخرزي يترجم لابي الفضل الميكالي[1] : «ولو قيل لي من امير الفضل ، لقلت الامير ابو الفضل ، وقد صحبته بعدما اناف على الثمانين ، وفارقته وهواي مع الركب اليمانين ، ونادمته فلم اقرع على منادمته سن الندم ، وقدمت عليه فغمرني انعامه من الفرق الى القدم ، وجالسته فأحمدته في كل امر ، وكأنني جليس قعقاع بن عمرو ، وأما أدبه فقد كان على ذبول عوده غضاً، يكاد يغض من ازهار الربيع غضاً . واما شعره فقد اعلن اهل الصناعة بشعار الانتماء اليه ، ورفرفت الشعراء بأجنحة الاستفادة عليه . واما رسائله فرسل يدر[2] وسلك لا يخونه الدر ، ومن تأمل منشوره في المخزون ، علم انه فرحة المحزون» . فهذا النوع من التراجم قد اصبح معرضاً لتفنن الكاتب ، او تكلفه على وجه

(١) دمية القصر : ١٢٢ .

(٢) الرسل : اللبن ، يدر : يغزر .

الدقة ، فلا هو حافل بالخبر ولا هو صورة واضحة الجوانب ، ولا فيه تحليل نفسي للشخصية المترجمة ، وهو تقريظ محض ، لا يرقى الى النقد . وبين هذه القطعة والقطعة التي اخترناها من ابي حيان بون واسع اساسه المقدرة الفنية في الرسم ، ولكنهما تشتركان في ان كلا منهما ترجمة لاحد المعاصرين الاحياء ، وهذا الاتجاه - اي كتابة سيرة الرجل قبل موته - ملحوظ في تلك الكتب التي يغلب عليها الطابع الادبي ، كيتيمة الدهر ودمية القصر والخريدة ، ومثل هذا يحد من مقدرة المترجم على ان يوفي من تحدث عنه حقه من نواحٍ مختلفة ولذلك فكثيراً ما تنحو هذه التراجم منحى الافراط في المدح او الافراط في القدح .

وتتصل بهذه النزعة الادبية الحاجة الملحة الى السمر ، ولعلها من أقوى النزعات التي دفعت كتابة السيرة في اتجاه واضح . فكثير من السير ليس فيها الدافع الخلقي ولا فيها الدافع التاريخي ، ولا هي عمل ادبي واضح ، وانما هي مجموعة من القصص والمغامرات ، والرابطة فيها دورانها حول شخصية واحدة . ويتفاوت فيها عمل الخيال ، ولكنها جميعاً مسلية تصاغ في اسلوب مبسط ، ولا يرتفع فيها الحوار عن اللغة الدارجة الا قليلاً . واعتقد ان كثيراً من سير المحبين مع حبيباتهم كان من هذا النوع . ولكن ابرزها سير الفريق الذي يعرف عادة باسم «عقلاء المجانين» . وهذه ناحية التفت اليها الاخباريون منذ عهد مبكر فكتب المدائني كتاباً في اخبار عقلاء المجانين ، وسار على نهجه آخرون من المعنيين بالسير والاخبار[1] ومن ابرز الكتب التي وصلتنا في هذه الناحية سيرة «سيبويه المصري» لابن زولاق .

(١) انظر اخبار سيبويه المصري : ١٦ .

وسيبويه هذا من ذلك النفر الواسع الثقافة الذي كان يعتريه طـائف من جنون ، ويولع به الناس ويغضبونه فيتدفق بكـلام مسجوع لا تعدم ان تجد فيه الهجاء المتقن الجارح . اما ابن زولاق ابو محمـد الحسن بن ابراهيم فـانه كـان ذا عنايـة خـاصـة بـالسيـر ، ولـم يقف نشـاطه عنـد كتابـة اخبار سيبـويه بـل كتب سيراً اخـرى لحكام مصر ، منها سيرة احمد بن طولون وسيرة خمـارويه وسيـرة الاخشيـد محمد بن طغـج وسيرة جـوهر واخبـار الماذرائي وسيـرة المعـز لدين الله الفـاطمي[1] وقد ضـاعت اكثـر السيـر التي كتبهـا باستثناء اخبار سيبويـه واجزاء من سيـرة الاخشيد نقلهـا ابن سعيد الاندلسي في كتاب «المغـرب» وقطع اخـرى نقلها من جـاء بعده من المؤرخين . ولكن هـذه البقية البـاقية ، تـدل على انه من اطـرف كتـاب السيـر وانفـذهم نـظراً ، مـع بسـاطـة في التعبيـر ، وروح قصصية عذبة ، واهتمام عارض بشيء من النواحي الاجتمـاعية او ما يمكن ان نسميه طبيعة الحياة اليومية للعصـر الذي عـاش فيه ، ففيـه يقظة الفنـان ودقة المؤرخ وتحـريه . وقـد سيطرت عليـه في ترجمته لسيبويه المصري طريقته في كتابة التاريخ ولعله كان معنياً بتسجيل مشاهـدته ومسمـوعاتـه تسجيلاً فـوتوغـرافياً دقيقـاً ، ومن هنا جاءت السير لديه اشبه بالمذكرات .

ولـم يكتب ابن زولاق سيرة سيبويـه للسمر فحسب ، بـل كان مؤمناً بسيبويه مندهشاً لكثرة الفوائد التي يمكن ان يتلقاها الانسـان منه اذا اغضبه . وقد دخل سيبويه في حياة ابن زولاق ، كما دخل في حياة غيره من معـاصريـه ، وكان ذلـك المؤرخ الدمث الـوديع

---

(١) السخاوي : الجواهر والدرر (في Mus. Historiography ص ٥١٥) .

يخافه ويتقي شره ، ويحاول ارضاءه بالسكوت ، ويستجيب لطلبه لئلا تصيبه جوارح هجائه . قال محدثاً عن نفسه «ولقيني سيبويه يوماً آخر عند دار الشمشاطي عند العشاء فقال الى اين؟ فقلت اريد الجامع . فقال لي : اريد حمارك هذا اركبه الى منزلي فنزلت فركبه ، وجلست في المسجد حتى عاد الحمار»(1) . وتسجيله لاخبار سيبويه يعود ايضاً الى اعجابه بالتناقض في شخصيته والى «عقدة» ولَّدها سيبويه في نفس ابن زولاق ، الرجل الوديع التقي ، الذي لا يحب ان يغلظ لاحد في القول ، ويدهشه ان يرى سيبويه يتطاول على الامير والوزير وصاحب الخراج ، وعلى ابن زولاق نفسه .

ولشخصيات «عقلاء المجانين» صلة واشجة بشخصية المتصوف او «المجذوب» . غير ان الذين كتبوا في سير المتصوفة ، اهتموا بالكرامات ، وابتعدوا عن دائرة الواقع ، الذي كان ابن زولاق يقترب منه او يعيش فيه ، ولذلك اصبحت سير المتصوفة «نماذج» ميتة لا سيراً عامرة بالحياة . ولا نخطىء كثيراً اذا لم نسمها سيراً لانها متوجهة بكاملها الى الابتعاد عن تصوير الحياة الانسانية ، من حيث هي معرض للضعف والقوة ، والعجز والقدرة ، والخطأ والصواب . . . بينما القارىء لسيرة كسيرة سيبويه يجد شذوذاً ولكنه شذوذ يثير الضحك والرثاء ، والاهتمام بهذا النوع من الشخصيات ادخل في مجال السير شخصيات كوميدية هزلية ، مثل سيبويه واشعب وابي العبر وجحا وماني الموسوس .

---

(1) اخبار سيبويه : ٥٠ .

وليس هناك دافع يؤدي الى الكتابة عن مثل هذه الشخصيات الا الميل الى الامتاع واثارة الدهشة والتحبيب بالفكاهة وكلها غايات كان يهيىء لها السمر ، وتدعو اليها مجالس الانس . ولهذا السمر نفسه اثر قوي في نشأة تلك السيرة الخيالية ايضاً التي بارحت عالم السيرة الحقيقي واصبحت نوعاً من القصص البطولية مثل سيرة عنترة ومهلهل وسيف بن ذي يزن واشباهها . وكما صادفتنا شخصيات هزلية في سيرة عقلاء المجانين ، تصادفنا هنا صور للبطولة العاتية ، وموضع النقص في هذه السير انها ايضاً مثل سير المتصوفة تعتمد «المثال» ؛ اي لا تجعل لعنترة قيمة الا لانه مثال البطولة ، ولا تعنى بالحياة الطبيعية لابي زيد الهلالي ، وانما تفيض عليه من خيالها ما يجعله «مثالاً» ـ او انموذجاً ـ عالياً للشجاعة ، وان كانت في جملتها اقرب الى الواقع من سير المتصوفة والزهاد ، لانها تصور البطل احياناً في حالات من الضعف والاستئسار والميل الى البكاء .

ونستطيع ان نقرر في غير تعميم ، بان السيرة التاريخية ظلت حتى العصر الحديث اقوى انواع السير عند المسلمين ، وهي تجمع احياناً بين الغاية الخلقية وغاية المتعة التي تحققها السير الادبية ، ولكنها قد تكون منبعثة عن مجرد الرغبة في التاريخ ، اي تكون غاية في نفسها ، لان المؤرخين المسلمين كانوا يرون السيرة جزءاً من التاريخ بل يرون أن التاريخ ليس الا سير الحاكمين . والشخصيات التي عالجتها تلك السير تتباين تبايناً

واضحاً ، وقد تكون سيرة عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين قائمة على التاريخ الممزوج بالتوجيه الخلقي ، ولكن الامر على غير ذلك في سيرة ابن طولون والاخشيد وجوهر الصقلي وجلال الدين منكبرتي ، فبعض هذه السير لم تتوجه له همة المؤرخ الا بطلب ، كسيرة الاخشيد التي كتبت بطلب من ابنه ، وبعضها يكتبه من يعيش في ظل الوالي او السلطان اعتذاراً عنه وتوجيهاً لبعض ما اشتهر من سيىء اعماله ، او تقديراً للرابطة التي بينهما ، او اظهاراً لخارجيته وعصاميته ان كان عصامياً ، او لغير ذلك من اسباب . فوراء كل سيرة دافع مباشر ، هو الذي حدا بالمؤرخ الى تسجيلها . تأمل مثلاً سيرة رجل مثل ابن طولون ، تجد ان توفر المؤرخين على كتابتهاامر يبعث حقاً على التوقف ؛ فقد كتبها احمد ابن يوسف وابن زولاق وابو محمد البلوي . اتراهم كتبوها لمميزات فارقة في شخصية ابن طولون نفسه ؟ واذا كان الاثنان الاولان قد كتباها لصلتهما بابن طولون فلم عاد البلوي الى كتابة تلك السيرة من جديد ؟ ألأنّ كتاب احمد بن يوسف (ابن الداية) كما يزعم البلوي لم يكن مرتباً ، ولا مستوفى ؟ ـ لا شك ان لشخصية ابن طولون مميزاتها الواضحة ، وسيرته عند مؤرخي عصره تعني تاريخاً لمصر وجوانب الحياة فيها من سياسية واجتماعية ، وقد عاصر ابن طولون يقظة خاصة على تاريخ مصر وشخصيتها وادبها ، ونمّى هو هذه النزعة حين أثار الشعور بالمنافسة بين مصر والعراق ، فتعصب لكل ما هو مصري ، وبث الثقة في نفوس اناس عاشوا على التبعية السياسية والادبية مدة طويلة من الزمن ، ولكن لو اسقطنا كل ذلك من حسابنا لظل من شخصية ابن طولون ما يدفع

لكتابة سيرته . وتفسير ذلك فيما اراه ان ابن طولون يمثل - الى جانب طموح مصر السياسي حينئذٍ ، شخصية الشاب الامين الفقير الاصل ، الذكي الذي تتوازى هذه الاخلاق فيه مع اقبال السعد ، وكل ذلك قائم على مبادىء من الزهد ، لان ابن طولون كان في شبابه مرابطاً في احد الثغور . هذه الشخصية التي يصدمها القدر ولا تحاول هي ان تثور عليه محببة الى نفوس الشرقيين ، واذا ادركنا هذا الميل العميق في تلك النفوس ، عرفنا لم لم يترعرع في تلك البيئة شخصيات تراجيدية بالمعنى الدقيق . وظلت كتابة السيرة تجذب اليها اهتمام المسلمين ، وتقف عوضاً عن القصة والمسرحية في حياتهم الادبية والتاريخية معاً . لقد ثار العباس بن احمد بن طولون على ابيه ، وكانت هذه الحادثة منغصاً له في نهاية حياته ، ولو ان الولد انتصر في ثورته تلك لأدخل المؤرخون ذلك في باب الحوادث ، ولم يفيضوا فيه افاضة كتاب السير ، اما انتصار الاب فانه يستحق التسجيل ، وتجمع له الوثائق من رسائل ووصايا وما الى ذلك لانه امر يثير العبرة ، وهي أجل عندهم من الاثر التراجيدي الخالص .

وفي السير التاريخية التي تدور حول الحكام ورجال السياسة ميزة ربما لم تتوفر في سير الادباء والعلماء ، وتلك هي العناية بالاحداث الخارجية المتصلة بهم ، اما في سيرة العالم أو الفقيه فان المهم هو سرد اسماء الاساتذة الذين علموه والاماكن التي زارها والاحاديث التي رواها[1] . وتتفق اكثر السير الاسلامية في سرد الصفات الخلقية والعقلية اما بالتنويه بها او بايراد

---

(١) Rosenthal : Mus. Hist. p. 91

القصص المختلفة التي تصورها[1] . وحتى السير التي تعالج حياة الحاكم او السياسي تختلف اختلافاً بيّناً فيما بينها من نواح متعددة . فمنها السيرة التي تقص في اسلوب هادىء بسيط ، لا مبالغة فيه ولا تزيد كسيرة ابن طولون للبلوي ، وكتابات ابن زولاق ، وسيرة السلطان يوسف للقاضي بهاء الدين بن شداد ، وبعضها متكلف الاسلوب مثل سيرة السلطان جلال الدين للنسوي ؛ واكثرها ما يصور النواحي البارزة في العلاقات والاحداث السياسية ، فتجيء تصويراً لاحداث فترة كاملة . وسيرة السلطان يوسف وجلال الدين والملك الظاهر وسيرة عمر ابن عبد العزيز لابن عبد الحكم من هذا القبيل ، وقلما تجد في تلك السير حديثاً عن دقائق الحياة الخاصة المتصلة ببطل السيرة ، الا ان كانت تلك الدقائق تبرز صفة من الصفات الخلقية التي يحاول الكاتب توضيحها كالعدل والشجاعة والكرم . ولا ينكر ان في اكثر هذه السير من الوثائق والاخبار ما يصلح لأن يكون اساساً لدراسات اكثر عمقاً واظهر ترتيباً . وعقدة العقد في السير ـ او في اكثرها ـ هي مسألة الاخطاء والعيوب ، فهذه امور كثيراً ما يتحاشاها الكاتب ، او يعتذر عنها اذا اضطر الى ذكرها ، ويفتن بعض الكتاب في التبرير والاعتذار . وهنا موطن يجب ان يتنبه له الدارسون حين يتناولون هذه السير ، ويتخذونها اساساً لفهم احد العصور او احدى الشخصيات ، فاكثرها قائم على ميل من كاتب السيرة نحو صاحبها وعلى ولاء له وهذا شيء لا نعفي منه رجلاً نزيهاً مثل القاضي بهاء الدين بن شداد في سيرة صلاح

(١) المصدر السابق .

الدين ، فانه يقول في الحديث عن وفاة صلاح الدين : «وبالله لقد كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوز والترخص ، الا في ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدي بالنفس»[1] ، ولست اتهم القاضي بهاء الدين بالتحيز ولكن هذا الولاء الشديد يجب ان يقابل بالحذر الشديد . على ان في شخصية صلاح الدين ، رحمه الله ، ما يبرر شدة هذا الولاء . فأما مع الكثيرين غيره فان هذا الولاء مدخول مصطنع . استمع الى النسوي وهو ساذج صادق يروي كيف ان السلطان جلال الدين منكبرتي فرَّ امامة التتار ووقف بقرب آمد ثم يقول : «وشرب تلك الليلة فسكر فناله من سكرة خمارة دوار الرأس وقطع الانفاس ، فلا صحو الا اذا نفخ في الصور ، وبعثر ما في القبور . واتاه وهناً من الليل شخص تركماني وقال : اني رأيت في منزلك الذي كنت امس فيه نازلاً به عسكراً زيهم غير زي عسكرك ، بخيل اكثرها شهب ، فكذبه وقال : هذه حيلة ممن لا يختار توسطنا في هذه البلاد . . . . وكنت قد سهرت تلك الليلة للكتابة فغلبني النوم في اخرياتها فلم اشعر الا بالغلام ينبهني ويقول : «قم فقد قامت القيامة ، فلبست سريعاً وخرجت هريعاً وتركت في المنزل ما ملكته جميعاً . . . .» وبعد هذا التفريط يقبض على جلال الدين ويقتل ، ويأتي الخبر الى مستشاره الهارب النسوي فيؤنبه بقوله : «فأضحى به جيب الزمان مشقوقا ، وسكر الحدثان مبثوقاً ، ولواء الدين مخفوضاً ، وبناء الاسلام منقوضا ، واقشعت سماء شام

---

(١) المحاسن اليوسفية : ٢٥٠ .

ابنـاء الـدين وبـوارقهـا ، وخـاف احـزاب الكفـر والجحـود صواعقها[1]» . . . فقول ابن شداد اذا وضع الى جانب هـذا الكلام ظهـر في غايـة الاعتدال . واذا كـانت بعض السير تـرتيباً وجمعـاً للاخبار المتعلقة بشخص واحد ، فـان سيرة القـاضي بهاء الـدين صـورة للمذكـرات كتلك السير التي كتبهـا ابن زولاق من قبـل . صحيح ان صور صلاح الدين فيهـا مثالاً للحـاكم المسلم ـ وربما لم يكن هذا بعيداً عن الواقع ـ ولكنه ايضاً عرض صلاح الدين من خـلال اعمـالـه دون تـزيـد او اغـراق ، ولم يهتم بـالمقـدمـات الفضفـاضة عن اولية الايـوبيين كمـا فعـل النسـوي او العيني في السيرة المسماة «السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد» . بـدأها بالكلام على توزيع البشر ثم في وصف القبائل التركية والجركسية ونسب المؤيد ثم في مميزات كـل شخص لقب بالمؤيـد ، والسر الكامن وراء كون المؤيد تاسع تسعة من الحكام الاتراك بمصر ، وميزة تاريخ اعتلائـه العرش . ثم سـرد لأحداث وقعت في عصـر المؤيد ، على شكل ركام من الاخبار ـ واكثره تافـه ـ لا رابطة فيـه من قـدرة على الترجمـة او قدرة على التـاريخ . وقـد يكون هـذا نقصـاً في كاتب السيـرة ، ولكن لا شـك في ان كثيـراً من السيـر كتب على هذا النحو وقليل منها هو الذي حـاذى في طبيعته سيـرة بهاء الدين ابن شداد[2] .

ومن يتتبـع كتابـة السيرة التـاريخيـة ، يجـد انهـا لم تخضـع للتـطور الا في امـور شكليـة بسيـطة ، وانمـا كـان تفـاوتهـا رهنـاً بـالتفـاوت بين كـاتب وآخـر ؛ وهـو قبـل كـل شيء تفـاوت في

(١) سيرة السلطان جلال الدين : ٣٧٨ ـ ٢٨٢ .

(٢) Rosenthal : Mus. - Hist. p. 93

الاحساس بمعنى التاريخ نفسه . فسيرة ابن طولون للبلوي - مثلا - أجلّ فائدة من حيث تصوير النواحي الاجتماعية بمصر ، وسيرة ابن شداد اكثر اهتماماً بالاحداث الحربية التي خاضها صلاح الدين .

وليس من السهل ان نحصر التأليف في السيرة اثناء العصور الاسلامية . فبعد سيرة ابن اسحاق ، طغى سيل التأليف في هذه الناحية وكثرت السير كثرة واضحة . وقد يقال انه كان لمصر نصيب وافر في هذا الاتجاه ؛ فهناك سيرة عمر بن عبد العزيزلابن عبد الحكم ، والسير التي كتبها ابن زولاق وابن الداية والبلوي ، وسيرة اليازوري وزير المستنصر ، والنوادر السلطانية للقاضي بهاء الدين ؛ واشتد الميل الى كتابة السير بمصر ايام المماليك ، فكتب محيي الدين بن عبد الظاهر سيرة الظاهر بيبرس وكتبها ايضاً عزالدين بن شداد . وكتب ابن دقماق سيرة الظاهر برقوق وترجم العيني للملك المؤيد والملك الاشرف ، وافرد غيره من المؤرخين سيرة لكل من الظاهر ططر والاشرف برسباي[1] . وقد يشجع على هذا الظن ان مصر عرفت عبادة الفرد منذ ازمنة قديمة ، ودار تاريخها حول تخليد الحاكم . والحق ان الاستقراء الدقيق يدل على ان البلاد الاسلامية شاركت مصر في هذا النشاط حتى اربت عليها ، وشاركتها الشعور بقيمة الفرد المتسلط والميل الى تمجيده وتخليده . ولكن اكثر السير المصرية - ان صحت التسمية - لم يطو مع الزمن ، واحيت المطبعة الحديثة عدداً غير قليل منه ، وليست ميزة هذه السير في كثرتها ، بل ميزتها

---

(١) الجواهر والدرر : ٥١٦ وكذلك كشف الظنون .

الصحيحة في ذلك الاسلوب المستوي البسيط الذي كتبت به ، وتلك الحيوية الجميلة التي تشيع في السرد والقصص ؛ نعم ان السيرة اصيبت بما اصاب الادب عامة بعد القرن السادس من تكلف والتواء ، ولكن بعضاً من السير التي كتبت بمصر سلمت من هذا الداء ، واحتفظت باسلوب مقارب لا هو بالاسلوب المصنوع ولا هو بالركيك الضعيف ، وليس من موضوع هذه الدراسة ان نتناول هذه السير من جانبها الاسلوبي ولكني ـ على ذلك ـ استطيع ان اقول إنها تحتفظ بصورة صادقة للحوار الشعبي والكلام الدارج مع المحافظة على قسط كبير من السلامة اللغوية ، وهذا هو سرها بالاضافة الى ما تقدمه من فوائد للدارس الاجتماعي . وما استطاع ان يقدمه الجاحظ للأدب في العراق من نقل أمين لصور من حياة ذلك البلد في نماذج من أشخاصه واخلاقهم ، استطاعت مصر ان تقدمه في السيرة التاريخية ـ اعني في ذلك الجانب الممتع منها . ولكن هذه السير عامة لم تتخذ طابعاً يمكن ان نسميه «فنياً» الا في أجزاء قليلة منها .

٢

نحو السيرة الفنية

ظلَّ اكثر السير في العالم الاسلامي مجموعة من الاخبار المأثورة او المشاهدات ، ليس فيها وحدة البناء ولا الاحساس بالتطور الزمني ، ولا تتبع مراحل النمو والتغير في الشخصية المترجمة ، وبالاختصار ظلت السير دون شكل تام ، ودون محتوى وافٍ كامل ، حتى العصر الحديث ، حيث واجهت بعض التغير في القاعدة والطريقة ، وكان ذلك بتأثير من الثقافة الغربية .

وفي الغرب نفسه لم تكن السير ، أحسن حالاً منها في العالم الاسلامي ، بل لعل كثيراً من كتاب السير التاريخية عندنا كانوا اسبق احساساً بمعنى الاعتدال في الحكم والتقدير ، واضعين الصواب الى جانب الخطأ حين يتحدثون او يترجمون لان «علم الرجال» علمّهم ان هناك جرحاً وتعديلاً ، وان هناك مرتبة وسطى تجمع بين الجرح والتعديل ، ولذلك لم تكن السيرة مدحاً مطلقاً او ذماً مطلقاً بل كثيراً ما كانت تجمع بين هذين في صدق واعتدال . ذلك لأن من طبيعة الخبر ان يجمع هذين النقيضين ، وليس للمؤرخ المنصف الا ان يذكرهما ـ متجاورين

احياناً - دون ان يكلف نفسه مشقة الربط والتحليل ، تلك ميزة لا نستطيع ان ننكرها في بعض السير ، ونستطيع ان نقول انها ميزة لكثير من المؤرخين المسلمين اثناء العصور الوسطى . اما في الغرب فقد كانت السيرة تشكو اهمال جوانب الضعف والنقص ، وكان من الصعب ان يتصور الناس السيرة شيئاً غير تعداد الحسنات وتعداد السيئات[1] .

وكانت اسوأ المراحل في تاريخ السيرة الغربية يوم ان تسلمها رجال الدين ؛ فتحولوا بها الى ما تحول بها من كتبوا سير الزهاد والمتصوفة في العالم الاسلامي - تحولوا بها الى ابراز كرامات القديسين وخوارق اعمالهم وجعلوها نماذج ليس فيها من حياة الشخص المترجم او تجاربه الانسانية الا القليل . واتجهوا بها نحو الوعظ والتذكير ، وسخّروها للعاطفة الدينية . وهذا وهن كبير يصيب السيرة ، لانها من اقرب الاشكال الادبية صلة بالذهن فاذا سيطرت عليها العاطفة ، عصفت بما فيها من صدق ، واذا تحكمت فيها العاطفة الدينية - بوجه خاص - افسدت عليها الاساس الذي تعتمد عليه[2] ، وانما اساس السيرة هو الانسان ، او شخصيته وتجاربه ، فاذا وقع الكاتب تحت تأثير العاطفة الدينية قلّت رغبته في التجارب الانسانية ، ونظر الى الآخرة بدلاً من ان ينظر الى الدنيا ، وابقى ونفى وفقاً لهذه النظرة ، وتذمم من ان يذكر بعض الآثام والنقائص ، لئلا يرسم للناس القدوة السيئة والمثال المضلل .

---

(١) Encyc. Brit, (Biography)

(٢) Nicolson : The Development of Eng. Biography . p. 111

غيـر ان هـذا اللون من السيـر ، لم يكن اللون الـوحيـد في الغرب ، بل كـانت سير العـظماء والملوك تتمشى جنبـاً الى جنب مـع سير القـديسين ، وبعد عصـر النهضة اصبحت السيـرة مجالاً خصبـاً لتـأبين الميت ، وخيـر من كـانـوا يؤدون هـذه المهمـة هم الاقـرباء والاصـدقاء . وكثيـراً ما كـان المرء يختـار من يكتب لـه سيرته بعـد موتـه ، غير ان النهضـة قللت بعض الشيء من طغيان النغمة الدينية في الحياة ، وازداد عـدد القراء اكثـر من ذي قبل ، وأخذ بصيص من روح الديمقراطية يشع في بعض النفوس ، حتى اوحى هذا لبعض الكتاب ان كل شخص يمكن ان تكتب سيرته . ومع كثرة السير وازديادها ، كان محـورها في الغـالب هو النجـاح في التجـارة او في الجـرائم ، لان هـذا اللون كـان مثيـراً للنـاس يومئذ[1] .

ولم تتميـز السيرة بـوضـوح في ادب كمـا تميـزت في الادب الانجليزي ، وربما لم تصل في غير هذا الادب ، مـا وصلتـه فيه من درجة فنية ؛ وكل هذا يشير الى ان السيرة في شكلها الادبي ، لا تزال حديثـة النشأة ، وابعـد نماذجهـا يرجـع الى القرن الثـامن عشـر . فهو العصـر الذي يقـع بين الحروب الانجليـزيـة الاهليـة والثـورة الفرنسيـة ، وفيه تحسن حـال الـطبقـة الـوسـطى ، وقـام مناضلون في سبيل مبادىء جديدة ، واصبح هنالك جمهـور يحب قراءة هذا النوع من الادب ، لانه يجب ان يملأ فراغ حياته بشيء جدي ، وأخذ حب الاستـطلاع يدفـع المرء الى ان يعـرف احوال جـاره . فكان ذلـك من اشد مـا ساعـد على انماء السيـر والاقبال

---

(١) راجع Dict. of World Literary Terms (Biograhy) .

على انشائها ، وغدت كتابتها مربحة تدر على صاحبها مالاً وفيراً ، وهذا شجع ايضاً في كتابة السير الذاتية ، فمن استطاع ان يكتب حياته يومئذ بطريقة تبهر القراء او تهزهم او تبعث المتعة في نفوسهم ، ضمن لنفسه ربحاً جزيلاً .

وفي ذلك العصر تلقت السيرة مؤثرات من المسرحية الا ان تأثير القصص فيها كان أعمق وأبعد مدى ، واتجهت يومئذ الى الذاتية وأصبحت مطولة لا موجزة ، ديموقراطية النزعة في إختيار من تكتب سيرهم ، وحلت دوافع حب الاستطلاع محل الدوافع الدينية والتعليمية السابقة . وعلى الرغم من ان المحافظة كانت طابع ذلك العصر في كثير من نواحيه ، فان السيرة كانت صورة جديدة للتجربة والاستكشاف ، حتى لقد زاد الميل الى كتابتها بدقة وأمانة وحيوية . ومن ثم يمكن ان يعد القرن الثامن عشر «عصر النهضة» في تاريخ السيرة الانجليزية . ومما يدل على الجدية في تناولها ، عناية كتابها ونقادها على السواء في تقرير المبادىء اللازمة لبنائها ، وتكرير القول في ان كتابة السيرة ليست نثراً للاقوال الخفيفة على القرطاس ، بل هي ذات أصول لا بد من أن تراعى بدقة[1] .

والقرن الثامن عشر هو عصر الدكتور جونسون ـ Dr. Johnson ورفيقه بوزول Boswell، وكلا الرجلين قد أدى لفن السيرة يداً لا تنكر . وواحدهما لا يذكر في تاريخ الادب منفصلاً عن الآخر . فعن طريق جونسون ذكر الناس بوزول ـ كاتب سيرته ـ وعن طريق بوزول ، بقيت صورة جونسون «الانسان» حية على الزمان ؛ ـ اما

(١) باختصار عن كتاب : The Art of Biography in 18 th cent. England .

جونسون الرجل العملاق جسماً وأدباً ، المطبوع بحكم نشأته الوضيعة على أنواع من الشذوذ كان ينفر منها الذوق ، الرجل الذي كان يضحك كوحيد القرن ، ويلبس ثياباً ممزقة قذرة واذا أكل أحدث أصواتاً منفرة ونفرت عروق جبينه وهو مكب على طعامه في صمت ـ هذا الرجل كان بعيد الاثر في تاريخ السيرة لأن حبه للصراحة والصدق ، وثورته على التكلف والتزوير ، والالحاح على ان لا تكون السيرة خطبة رثاء أو تأبين ـ كل هذه غيرت من نظرة الناس الى مهمة السير . وقد وضع جونسون في «سير الشعراء» المثال الذي يحتذى في كتابة السيرة ، بانياً كل ذلك على أساس من البيان المحكم الرصين ، تكتنز الجملة منه حقائق كثيرة قد تشرح في صفحات . وكان يعتقد ان الادباء في انكلترا لم تكتب سيرهم كتابة جيدة ،ومن أبرز ما يوضح مذهبه في الترجمة قوله وهو يكتب عن شاعر اسمه كاولي Cowley: «على الرغم من الفقر الذي تعانيه السير الانجليزية ، فان حياة كولي قد كتبها الدكتور سبرات Sprat وهو مؤلف وضعة خصب خياله وروعة بيانه عالياً في المرتبة الادبية. ولكن حماسته في الصداقة أو طموحه نحو الفصاحة ، جعلاه يكتب ما هو الى التأبين أقرب منه الى التاريخ ، فقد كتب عن أخلاق كولي لا عن حياته لأنه يجنح الى الايجاز حتى لا يوضح شيئاً ، وكل ما يكتبه مغلف بضباب التقريظ ـ أوجز فيه أم أطال : ـ ولد ابراهام كاولي في عام ألف وستمائة وثمانية عشر ، وكان والده بقالاً حاول سبرات ان يخفي حاله بقوله أنه كان «مواطناً»[1] .

---

(١) The Lives of the Poets: vol. 1 p. 1 - 2

فايثار الصدق الصراح ـ كما تبينه هذه الفقرة ـ هو الذي حاول جونسون أن يحققه في كتابة السيرة . وحاول من عاصروه أو جاءوا بعده أن يترسموا فيه خطاه ، لأن جونسون كان أكبر شخصية أدبية في عصره .

وتلك الشهرة الادبية هي التي جذبت بوزول ، الذي لا يعرف في تاريخ الادب الا بأنه كتب سيرة جونسون . وكان بوزول كرفيقه الاكبر ذا شخصية مثقلة بأنواع الشذوذ ويستطيع من يقرأ ما كتبه أن يلمح فيه نقائص كثيرة ليس أكبرها ادمانه السكر ، ولا أقلها فقدانه للشعور بالعزة والكرامة . فكم من اهانة احتملها من استاذه ورفيقه راضياً ، وكم من مرة صرح بضعفه البشري في مواجهة الرذائل . وقد كانت صراحته عن نفسه تشير الى مقدار ما تشبع به من ميل لذكر الحقائق مجردة دون زخرفة أو تزوير ، وكذلك كان شأنه حين أصبح ظلاً لجونسون يسجل عنه كل صغيرة وكبيرة بما في ذلك حركة اليد ورفع الصوت وانخفاضه ـ وقلما كان صوت جونسون يتضاءل خافتاً ـ ولون الثياب وحالها ، وطريقة الاكل على المائدة ، وحجم العصا التي كان يحملها . وكان جونسون شغوفاً بالحديث يستطرفه ولا يمله ، ويقضي الساعات الطوال بين أصحابه يحدثهم ويحدثونه ، فنقل بوزول كل ذلك نقلاً دقيقاً ، وابتعد عما كان يشيع في عصره من ميل الى التعميم حين اختار هذا التدقيق ، وبارح المجرد الى المحسوس ، وكان ـ كأستاذه وصديقه ـ يعتمد الصدق الخالص . الا أنه فاق أستاذه وفاق كل من كتب في فن السيرة ، في دقته المتناهية وواقعيته الفوتوغرافية ، ونقله للصغائر والتوافه من أمور الحياة اليومية . ولو وقف بوزول عند هذا الحد لما كان في

طريقته شيء غير نقل الحقائق مجردة ، ولكنه أضاف الى الصدق عنصر الحيوية ، والانسياب في القص ، وكان مندمجاً فيما يكتبه يبعث فيه الحركة والحياة والتنوع ، واثارة حب الاستطلاع والتشويق . وقد استغل كثيراً من هذه الخصائص الفنية ، وبرع في استغلال كل خاصية في موضعها . ولم يتورط في الاستطراد بل كل ما أورده في تلك السيرة الضخمة يدور حول جونسون ويتعلق منه بسبب ، ولم يخرجه حبه لجونسون عن الجادة ويجعله عابداً في محراب استاذه بل ذكر نقائصه وتوافهه جنباً الى جنب مميزاته ، فاذا جونسون في هذه السيرة انسان تام الخلقة نراه وهو يتحدث ويأكل ويصلي ويضحك ويصخب ويشغب ،ونعجب لشخصه بمعزل عن مقدرته الادبية ، ونضحك من بعض تصرفاته ، ونندهش لكثير من آرائه ومواقفه وأخطائه . واكبر الظن ان الفكاهة التي تثور في انفسنا لم تكن غاية لبوزول ، ولكن طريقة نقله لأطوار هذه الشخصية وأحوالها ، تجعل المضحك مضحكاً في موضعه ، وان لم يعتمد بوزول ذلك . وليس يعنينا هنا أكان بوزول عبقرياً أم أن المصادفة وحدها ـ المصادفة التي جعلت جونسون موضوعاً لكتاب ـ هي التي خلّدت اسمه ، وانما الذي يعنينا انه أحدث خطوة كبرى في تاريخ فن السيرة ، وقد يؤخذ عليه أنه كان حقوداً خبيثاً يقوّل جونسون ما لم يقله ، وينطقه باتهامات مصوبة الى بعض رجال عصره ، وان الشكل العام مفقود في سيرته ، وانه حشد فيها الرسائل الكثيرة . ولكن سيرته باعتراف الدارسين مثل فذّ ، وامتلاؤها ـ في نظري ـ لا يكسبها الخفة الممتعة ، فهي في طرافتها يعيبها ما يعيب الدقة المتطرفة من سأم واملال ، ولأنقل للقارىء فقرتين اثنتين من هذه

السيرة لكي يتصور طريقة بوزول في السرد :

(أ) ذُكرتْ مسز مونتاج وهي سيدة عرفت بمقالة كتبتها عن شيكسبير :

رينولدز : أعتقد أن هذه المقالة تعلي من مقامها .

جونسون : نعم يا سيدي انها تعلي من مقامها هي ولكنها لا تشرف إنساناً آخر ؛ حقاً انني لم اقرأها ابداً ولكني حين انظر الى زيق قطعة من النسيج وارى خيوطاً لا اتوقع حين امد نظري أن أرى تطريزاً . سيدي : بل اغامر فأقول انه ليس في كتابتها عبارة واحدة من النقد الصحيح .

جاريك : ولكنها ـ يا سيدي ـ تبين كيف ان فولتير اخطأ تقدير شيكسبير ، وهذا لم يفعله احد من قبل .

جونسون : يا سيدي : لان احداً لم يبال به ولم يره اهلاً للنقض . واي ميزة في هذا؟ إنك اذن تمدح معلماً جلد تلميذاً اعتبره مريضاً . لا يا سيدي ، ليس هناك نقد صادق في ذلك ـ لا نقد يصور جمال الفكر . . . . . . الخ[1] . .

(ب) وهذا مثال آخر يختلف قليلاً عن سابقه وهو يصور كيف كان بوزول يغيظ صديقه باقحام الحديث عن الموت ، وكان جونسون يهتز فرقاً من الموت :

«وحين سألته أليس لنا ان نهيء اذهاننا لاستقبال الموت أجاب في حدة ، لا يا سيدي:دع الموت وشأنه فليس يهم كيف يموت الانسان وانما كيف يعيش . ان عملية الموت ليست شيئاً

---

(١) The Life of Samuel Johnson , vol. 1 p. 366

هاماً ، لانها تنجز في لحظات . » ثم أردف قائلاً ـ بنظرة جادة ـ «ان الانسان ليعلم ان الموت كذلك فيعنو له ، وليس مما يغني عنه كثيراً ان يجأر بالعويل» .

«وحاولت ان استمر في الحديث ، فاستشاط غضباً وقال لي : لا تزد ، وانقلب الى حالة من الاضطراب عبّر فيها عن نفسه بطريقة أرعبتني وأحزنتني ، ورأيته لا يطيق بقائي فتأهبت لانصرف فناداني بخشونة قائلاً : «لا ترني وجهك غداً» فعدت الى البيت قلقاً مهموماً ، وتجمعت في خاطري كل الملاحظ النابية الجافية التي سمعتها عن أخلاقه وتصرفاته ، ورأيتني كأنني ذلك الرجل الذي أدخل رأسه في فم الاسد مرات عديدة واخرجه سالماً ، وفي آخر مرة فقد رأسه . وفي اليوم التالي ارسلت اليه وريقة اقول فيها : قد أكون مخطئاً ولكن عن غير عمد وانه كان قاسياً في معاملته لي ، وانه على الرغم من اتفاقنا على ان لا نلتقي ذلك اليوم فقد أمُرُّ عليه في طريقي الى المدينة وامكث عنده خمس دقائق ، وقلت له فيما قلته : «انك في ذهني منذ الليلة الماضية مغلف بالسحاب والعواصف ، فدعني ابصر لمحة من شعاع الشمس ثم أذهب لطيتي في هدوء وانبساط» .

«ولما دخلت عليه مكتبه سررت لأني لم أجده وحده والا كان لقاؤنا مربكاً . كان في صحبته مستر ستيفنر ومستر تيرز وكلاهما اراه معه لأول مرة ، وقد دلت سحنته على ان وريقتي هدأت من غضبته لانه تلقاني باشاً فشعرت بالارتياح ، وشاركت في الحديث . . . . . . »

«وتحدث جونسون عن كاتب كثير الانتاج حديثاً قاسياً فقال :

كان يكتب كتباً غفلاً من امضائه ثم يكتب كتباً أخرى يقرظ فيها الكتب الاولى ، وفي هذا العمل شيء من اللؤم والنذالة . فهمست في أذنه قائلاً : «يبدو يا سيدي انك اليوم طيب الخاطر للدعابة» .

جونسون : هو كما تقول يا سيدي .

وبينما أنا اريد الانصراف وقد بلغت السلم استوقفني مبتسماً وقال : «انصرف . . . . . الينا» وكانت عبارة غريبة في دعوتي للبقاء ، فبقيت بعض الوقت[1]»

وسيقدر القارىء ما حققه بوزول اذا عرف ان هذه الصراحة أزعجت كثيرين ، وأعجزت كثيرين ، وضج الناس ينتقدون تلك الصراحة التي أخذت تستعلن في كتاب السيرة ، لانها تحطم المثال ، وتشوه الأنموذج وتسيء الى الاخلاق ، وترسم القدوة السيئة . وما كاد العصر الفكتوري يرخي أطرافه على الحياة الانجليزية حتى حاربت روح التبرر والتزمت هذا المنهج الذي سار فيه بوزول ، وعاد كتاب السيرة ، الا قليلاً، يكذبون على أنفسهم وعلى الناس ، وعادت العاطفة الدينية تتحكم في توجيه السيرة وفي كتابها . فخالطها شوب من التزوير حرمها كثيراً من النقاء، ولما كتب أحدهم (Froude) سيرة كارليل في شيء من صراحة بوزول ، تنزلت عليه صواعق الذم من كل جانب ، واتهم الكاتب بأنه عادم الذوق ، خائن وقح ، لان هذا النوع من السيرة كالذي كتب يكشف عن دخائل الحياة الخاصة ، ويشهر بها ،

---

(١) Op. Cit : pp. 378 - 80

ويعلن عن أسرار لا بد من أن تظل طي الكتمان[1] .

وبعد هذه النكسة أصبح البعث الجديد في حياة السيرة من نصيب من يثور على هذا الاتجاه الفكتوري ، ويحطم هذه الاغلال الثقيلة. ووقع القدح الفائز في يد ليتون ستراتشي Lytton Strachey الذي اضطلع بجهد مزدوج ، أما اولاً فقد عاد الى مقياس الدكتور جونسون في الصراحة والصدق ، والعناية بابراز حياة الفرد على طبيعتها ، لا صورة المثال ، حين ترجم لمشاهير العصر الفكتوري ، وأما ثانياً ـ وهذا هو الشيء الجديد الذي حققه ـ فقد أعمل نظرته الساخرة في كتابة السيرة فخلق فيها نوعاً جديداً يمكن ان يسمى «السيرة الساخرة » Satiric Biography فكان بهذا الاتجاه أقوى ظاهرة في تاريخ السيرة كله. وبدلاً من أن يعتمد طريقة بوزول في الدقة المتناهية لجأ الى الاختيار ، وخاصة في سيرة الملكة فكتوريا ، لانه وجد نفسه أمام احدى وثمانين سنة ، مليئة بالاحداث والاعمال والاشخاص . وقد يختار الكاتب ناحية من حياة صاحب السيرة ويتتبعها مستقصياً ، جاعلاً كل شيء ثانوياً بالنسبة لها ، محللاً المواقف والنزعات اثناء العرض ، ولكن مجال التحليل لم يكن واسعاً امام ستراتشي ، ولذلك اختار التركيب بدلاً من التحليل ، وحذف وركز جهده فيما استبقاه ، فعرض مادته في لباقة منقطعة النظير . ودون ان يضيف اليها شيئاً من التعليقات ، كتب نقداً للحياة من خلال كتابة السيرة ، وجعل النمو عالقاً بالحركة الداخلية للشخصية الرئيسية ، وأعطى

---

(١) The Development of Eng. Biog. pp. 127 - 31

للشخصيات الاخرى في كتابته حظاً من الوجود ، يعين على تدرج النمو في الشخصية الرئيسية المترجمة ، ولم يلتفت الى الاحداث الخارجية قدر التفاته الى النمو الداخلي النفسي ؛ ومنح لمقدرته الادبية مجالها ، فأجاد من الزاوية النفسية أيضاً . ولكنه أوقف السيرة في مأزق جديد : هل للكاتب أن يختار جزءاً من حياة أحد الناس محللاً ومفلسفاً ويسمى عمله هذا سيرة ؟ هل للكاتب ان يدير حياة شخص حول فكرة يعتنقها ، نفسية كانت أو ذهنية او فنية ؟ أليست مثل هذه المحاولة أو تلك ، صرفاً للسيرة عن غايتها الاولى وهي : رسم الخط البياني لحياة شخص ما ، مع اثارة المتعة التي يثيرها أي عمل ادبي آخر ؛ حقاً إن موقف ليتون ستراتشي كان فذاً في تاريخ السيرة ، ولكن براعته البارعة كفلت له النجاح واخفق كثير من مقلديه في اقتفاء خطواته ، فبعضهم استهوته روح التهكم فجر السيرة الى نوع من الهزلية الساذجة ، وبعضهم اختار الحذف والتركيب ، فوقع في التحيز والمغالاة ؛ واذا كان ستراتشي قد جدد تجديداً واضحاً في كتابة السيرة ، فإنه جعل نموها في هذا الاتجاه عسيراً .

وقد فاض فيض السير بعد ستراتشي ، محاكاة لطريقته في البدء ، ثم غلب عليها الطابع العلمي ، وخاصة تلك السير التي تكتب بروح أكاديمية أو خاضعة لنظريات معينة نفسية أو بيولوجية أو أنثروبولوجية . ولنظريات فرويد أكبر الأثر في اتجاه الكتاب الى دراسة النواحي النفسية ، ومعالجة الامور المتعلقة بالحياة الجنسية في تحليل علمي أو تحليل مشتبه به ، وخاصة عن دراسة شخصيات كان لها نصيب من الشذوذ ، مثل بليك وادجار الان بو وأمثالهما ، وفي هذه الناحية كتبت سير كثيرة .

أما السير ذات الطابع الادبي فبعضها ظل يثير المتعة بقوة العرض في التركيز والاكتناز ، أو في التحليل الدقيق ، أو في التراوح بينهما ، وفي تهيئة الجو القصصي على مثال ما في القصص، كما هي الحال عند اميل لودفيج E. Ludwig في بسمارك ونابليون والمسيح . وقد اعترف لودفيج انه كان يعتمد على نجوى الذات ، ووصف الحركات النفسية حيث تقل لديه المصادر والوثائق ؛قال في مقدمة كتابه كليوبترة : «وما وجدت من نقص في الاسانيد النفسية أباح لي التزام نجوى الذات ، ووصف حركات الروح بحرية اعظم مما تسوغه كثرة المصادر عند وجودها ، ولما بدأت تأريخي عن غوته في سنة ١٩١٩ ولزمت سبيلاً جديداً في ترجمته ، رجعت أحياناً الى مبدأ مناجاة الانسان نفسه ؛ ومثل هذا ما صنعت في كتابي نابليون ثم لم أعد اليه في كتبي الاخيرة قط ، بيد ان ما ترى من عدم الوثائق النفسية على الاطلاق ، يجعل هذا المنهاج امراً مستحباً هنا (اي في سيرة كليوبترة)»[١] .

وصرح لودفيج ايضاً في كتابه «نابليون» ، بأن ليس في كتابه جملة واحدة مختلقة الا حديث النفس ، أما ماعدا ذلك فكله مقتبس من الوثائق والرسائل ؛ أما طريقته في ذلك الكتاب عامة فقد وصفها بقوله «وقد حاولت هنا ان أكتب تاريخ نابليون من الباطن»[٢] ومن ثم لم يهتم بالحركات السياسية الظاهرة والمعارك الحربية اهتماماً كبيراً ، بل وجه همه الى كل ما يتعلق بشخص نابليون ونفسيته من مثل خلافه مع إخواته وزوجته وحالات اكتئابه

(١) كليوبترة : ١٠ .

(٢) نابليون : ٣٢٠ .

وفخره وغضبه ، وامتقاع لونه وشره وخيره مع الصديق والعدو .

ومن أشهر الكتاب الذين يمزجون بين الميل القصصي والسرد التاريخي اندريه موروا André Maurois فانه اخرج من سيرة شللي Ariel قصة ممتعة سلسة يكاد لا يميزها القارىء عن أي قصة محكمة النسج والتشخيص ، وهذا لا يتيسر دائماً إلا اذا كان المترجم شخصاً بارعاً في القص مثل موروا ، وكان المترجم له شخصاً ذا أحداث وأعاصير تتنازع حياته ، مثل شللي . ولا شك أن حياة شللي كما صورها موروا غير متخيلة وانما هي مستقصاة من الرسائل والوثائق ، مكتوبة بشكل يخيل الى القارىء أنها من اختراع الكاتب نفسه . استمع اليه يقول في وصف حال شللي بعد ان التحق بكلية إيتون : «أغلق شللي كتابه ، وتمدد على العشب المشمس المنمق بالازاهير ، وأخذ يتفكر في بؤس الانسان ؛ ومن بنايات المدرسة وراءه تأدت اليه همسات أصوات غبية ، تضطرب وتتموج على صفحة البر الشجير والماء ، ولكنه في جلسته تلك قد أمن النظرة الساخرة التي تنفذ الى نفسه ؛ فانهمرت دموع الغلام ، وشد بيديه الواحدة على الاخرى وقال : أقسم أن أكون عادلاً حكيماً حراً ، إن كنت أملك هذه القوى ، أقسم أن لا أواطىء الاناني والقوي بشيء حتى ولا بالسكوت ، إنني أنذر حياتي كلها لعبادة الجمال»[1] ـ هل حدث كل هذا حقاً ؟ هل اغلق شللي كتابه وبعد اغلاقه تمدد على العشب ؟ وهل أخذ على نفسه تلك العهود والنذور أو كان هذا كله من خيال الكاتب ؟ ليس ببعيد ان يكون شللي قد كتب رسالة يصف

---

(١) Ariel : p. 6

فيها موقفه آنئذٍ ، ولكن الاسلوب الذي اختاره موروا هو الاسلوب الذي ينتحيه القصصي نفسه .

ولو افترضنا ان هذه الحركات البسيطة التي صورها موروا انما انتزعها من خياله ، فليس ثمة شيء فيها يضير الحقيقة كثيراً ولكن يطمئننا من هذه الناحية أيضاً قول أحد النقاد : ان موروا لم يضف الى الكتاب من خياله ذرة واحدة ، وانما لون الحقائق بفن القصص وحقق ذلك بيد لبقة وعاطفة حارة ، وقد لقيت هذه السيرة من الرواج والثناء ما دل على ان الناس يحبون الحقائق مغلفة بالطلاوة ، كما تغلف الادوية بالحلوى ، ولما صدر الكتاب في فرنسا لم يعرف الناس بشللي فحسب ، بل أثار اهتماماً بفن السيرة عامة ومسح الماضي الذي كان مهملاً بلون جذاب . والسحر الذي تجلى في «آريل» انما مرده الى الطريقة في القص وفي التشخيص العذب ، والى رزانة الاسلوب ورجاحته والى صورة المرأتين اللتين تعلقت حياة شللي بهما ، والى المقارنة بينه وبين لورد بيرون[1] .

ولو قارنا بين ما كتبه موروا على طريقته ، وما كتبه مترجم آخر تصدى لحياة شللي بالعرض ، لوجدنا حقاً ان الحقائق الاولى موجودة في «آريل» . ولكنّ هناك خطراً اقتضته الروح القصصية ، هو في مدى الاختيار والتحقيق ، ولاضرب على هذا مثلاً يتعلق بما حدث لهاريت Harriet زوجة شللي الأولى : فقد صور موروا كيف ان هاريت عندما لم تطق الحياة مع شللي ،

---

(١) عن A Doctor Looks at Biog. ٣٠٠ ـ ٣٠١ باختصار .

ذهبت تعيش وحدها ، وأن العسر المادي انزلق بها الى حياة الرذيلة ، وكان هذا متمشياً مع السياق العام الذي تبرز فيه قسوة شللي أو عدم الانسجام بين الزوجين ، ثم انها وجدت غريقة في إحدى البحيرات . واعتمد موروا في هذا التصوير على بعض المدونات التي قرأها ؛ ولما كان ذلك يتمشى مع طبيعة المأساة ، لم يحاول ان يحاكم تلك الروايات والمدونات ، وربما كان هذا من جناية الروح القصصية ؛ غير ان ادموند بلندن[1] EdmundBlunden بعد ان فحص هذه الروايات جميعاً ، نقض القول بأن هاريت انزلقت في الوحل ، ونفى غرقها في البحيرة ، وكشف المواطن الضعيفة التي أدت الى مثل تلك الاستنتاجات الخاطئة .

وقد أقر موروا بأن الكتابة عن شللي كانت ترضي رغبة ذاتية في نفسه وتسمح له بأن يبني شخصيته من خلال شللي[2] فكشف بذلك عن حقيقة هامة في كتابة السيرة ـ كان موروا حين اختار هذا الموضوع حديث عهد بحياة الدراسة مثل شللي مليئاً بالافكار المثالية في الفلسفة والسياسة ، ثم واجه الحياة العملية ورأى آراءه تذوب كما يذوب الحبب في الكأس ، فانبعث في نفسه ألم ممض ، وأحب أن يخفف الألم عن نفسه بالبوح والافضاء ، فوجد في سيرة شللي هذا المنفذ . ومن يقرأ «آريل» يحس كيف يسخر موروا سخرية دقيقة لاذعة ، من شللي الثائر الذي يريد ان يحرر الايرلنديين بطرق صبيانية ، ومن شللي الذي أحب جودوين ـ وهو رجل كان له أعمق الاثر في تكوين شللي من

---

(١) Shelley, pp. 141 - 144

(٢) Aspects of Biography, 120 - 122

خلال أحد كتبه ، فلما عرفه شللي وجد البون بين حيـاته العمليـة وآرائه النظرية كالبعد بين الارض والنجوم ـ وهو في أثناء ذلك انما كـان يسخر من نفســه ومن اخفاق نـظريـاتـه في مـواجهـة الحيـاة العملية .

وكتب موروا سيراً أخـرى ، مثل حيـاة دزرائيلي وبيرون على النهج الذي اتبعه في كتابة سيرة «شللي» ؛ كما كتب حياة جـورج صاند بعنوان «ليليا» ،[1] وهو يقول عن هـذه السيرة مصـوراً جانبـاً من طريقته :

قال لي بعض القراء : «لقد جعلت جورج صاند جذابة حقـاً ولكني لم أفعل ذلك مـطلقاً ؛ انمـا كانت هي جـذابة حقـاً ، فلم يكن يعجب بها موسيه وشوبان فحسب، بل اعجب بها فلوبير وبلزاك وترجنيف ودوستويفسكي . وكانت مهمتي ان اظهر جـورج صانـد كما رآها هؤلاء وغيرهم»[2] .

ومن البارزين ايضاً في فن السيرة استيفان اتسفـايج وقـد نشر ثلاث مجموعات من السير ، في الاولى ترجمة كليست وهيلدرلن ونيتشـه ، وترجم في الثـانية وعنـوانها «اسـاتذة ثـلاثة» لـدكنز وبلزاك ودوستويفسكي وفي الثالثة «بناة العالم» ترجم لتولستوي وكازانوفـا واستنـدال ؛ وفي هذه الثـالثة بلغت قـوة التحليل النقـدي عنده ، مداها ، وهو من اكثر كتاب السير تصويراً لذاتيته من خلال حيوات هؤلاء الناس وانما أعجبه في سيرهم اضطرابهم النفسي وشذوذهم

---

(١) حياة بيرون وجورج صاند لموروا ترجمها الى العربية الاستاذ بهيج شعبان ونشرتهما دار بيروت .

(٢) Highlights of Mod. Lit , pp. 210 - 11

المتميز . ويفترق اتسفايج عن لودفيج «بالعمق وادراك المعاني الكلية واستخراج النماذج الانسانية العامة ، واستنباط العبرة من كل الاحداث التي يعنى بدراستها ، ويمتاز عن موروا الى جانب العمق وكل هذه المميزات ببراعة في وصف المناظر الطبيعية التي تجري في داخل اطارها الاحداث»[1] .

ولم تكن السيرة المشبهة للقصة في مبناها ، مشمولة بالرضى من جميع الناس ؛ بل واجهها كثير ممن يحبون الحقائق الجافة بشيء من الاستنكار ، وربما كان للغلو الذي أصابها يد في ذلك ؛ فان الدقة التي كان يحافظ عليها كل من موروا ولودفيج واتسفايج ، اصبحت معرضة للتهاون على ايدي غيرهم من الكتاب ، وغدا الخيال هو القوة التي تصنع جانباً كبيراً من الاشخاص والاحداث ، ومن أمثال ذلك سيرة الليدي هاملتون التي كتبتها إ. بارنجتون E. Barrington بعنوان «السيدة المقدسة» The Divine Lady . فصلة هذه السيرة بالقصص أقوى من صلتها بالتاريخ ، لا لقوة الخيال وروعة الاسلوب فحسب ، بل للاعجاب العاطفي الذي تحمله الكاتبة لبطلة السيرة. ويشبهها في هذه الناحية «حياة شوبان» التي كتبتها الانسة مارجري ستراتشي بعنوان «العندليب» فقد مزجت فيها حقائق حياته بالقصص الخيالية ، ورسمت لذلك العبقري صورة جميلة[2] .

وفي هذا النوع من «السير القصصية» وجد بعض القراء تعويضاً عن القصة نفسها ، ذلك لأن كثيراً من هذه السير انما

---

(١) الموت والعبقرية : ٣٨ .

(٢) انظر في نقد هاتين السيرتين كتاب The Doctor Looks at Biog. ص ٣٠١ - ٣٠٧ .

ينتحي ناحية الاستطراف ، وتختار له شخصيات كانت ذات علاقات بارزة عنيفة ، مثل شللي والليدي هاملتون وبيرون وشوبان ، وكذلك كان اتسفايج يختار للترجمة عباقرة متفردين في شذوذهم ، بينما يترجم النفسيون للشخصيات المريضة ويحاولون الكشف عن اسرارها بعون من المبادىء الفرويدية . وكل هذا يشير الى نوع السير التي اقبلت عليها الجماهير . وفي فرنسا بالذات اتجهت دور النشر الى تشجيع الكتابة عن الحب في حياة ابطال السيرة دون الفصول الاخرى من حيواتهم . فصدرت سير مثل « قصة حب مدام دي بمبادور » لمارسيل تنيار Marcelle Tinyare و « كازانوفا » لموريس روستاند Maurice Rostand وكتبت قصة حب جوزفين ، وغير ذلك كثير[1] .

وفي الفترة الواقعة بين الحربين راجت السيرة التاريخيةوالادبية لكثرة الاقبال عليها ، وحفز الناشرون الكتاب على إنتاجها ، غير ان الحرب قللت منها ، فاتجه اكثر الميل الى كتابة السير الذاتية ، كما سيتضح في الفصل التالي ، وقبل الحرب بقليل أصبح إقبال الكتاب على طريقة ستراتشي الساخرة ضعيفاً ، واتجهوا الى التصوير التقليدي مع شيء من التفسير النفسي . وكثر تقليد الطريقة الفرنسية باكثار الحوار المتخيل وترجمة الحيوات الرومنطيقية[2]. ولم تسترجع السير الانجليزية بعد الحرب مجدها الذي بلغته على يدي ليتون ستراتشي من قبل وان صدر في هذه الفترة عدد كبير من السير، يتمتع كثير منها بالاصالة والاحكام .

***

(١) المصدر السابق ٣١ ـ ٣٢ .

(٢) Hayward J.: Prose Lit. Since 1939, pp. 24 - 25

تلك هي ابرز المعالم في السيرة الغربية الحديثة ، أما في البلاد العربية فانها لم تبلغ هذا المبلغ من التنوع والاتقان ولكنها ـ على أي حال ـ باينت السيرة التاريخية والاخلاقية التي رأينا مظاهرها في العصور الوسطى واتجهت في ظل النهضة الحديثة اتجاهات مقاربة لما في الغرب ، فتأثرت بالدراسات النقدية للنصوص ، والنظريات النفسية والبيولوجية ، واصبح أكثرها أقرب الى المظهر العلمي منه الى المظهر الادبي ، وقلت الرغبة في تأريخ الحياة نفسها ، وأصبح الحديث عن الاشخاص تأريخاً لآرائهم ان كانوا من الادباء ، او توضيحاً لدورهم السياسي وعلاقاتهم الاجتماعية . ولم ينمُ الميل الى تبيان الحياة نفسها من حيث نموها ومضاعفاتها وملابساتها ، حتى خيل للدارس ان هذه الغاية اصبحت وقفاً على القصة التاريخية . ويمكن ان نميز في ما يكتب من السير ثلاث مدارس : مدرسة ذات طابع اكاديمي تقوم دراستها على التشريح والتحليل والتدقيق في الاستنتاج بعد عرض المتناقض المضطرب من الروايات لاستخلاص الحقائق منها ، وتحتاج هذه الدراسة قوة خارقة من النقد اللازم لكل من المؤرخ والاديب ، وكثيراً ما تكون هذه الدراسة مخفقة لضعف ملكة النقد ، فيجيء تأريخ الحياة روايات قد تكدس بعضها فوق بعض ، وغرقت في اثنائها شخصية الدارس ، وقد تخرج الدراسة في شكل مجادلات بيزنطية اكثرها رد على آراء قديمة ، أو تهكم بأصحابها ، ويصبح الشخص المترجم ظلاً باهتاً ، لا تمده قوة من حياة ، ولا تكشف عنه اصالة من نقد . أما التكوين والبناء الايجابي ، فهما ضعيفان في هذا النوع من الدراسة .

والمدرسة الثانية : مدرسة قديمة في طابعها ، لا تؤمن

بالدراسة النقدية قدر إيمانها بما قاله القدماء ، ولذلك كانت عنايتها بالتراجم لا تتجاوز إعادة ما كتب من قبل ، في بيان إنشائي مفكك ، وحماسة مفتعلة .

والمدرسة الثالثة هي التي تنتحل السيرة الادبية أو شكلاً مقارباً لها ولما كانت هذه المدرسة هي التي تتصل بهذا الكتاب ، فاني أحاول هنا ان أفردها بالحديث وأجلو بعض مميزاتها . والرابطة الجامعة لاصحاب هذا الاتجاه هي عنايتهم بالفرد وانسانيته ، على أساس من الجو التاريخي ، في تطور حياته وشخصيته وتكاملها ، وكل ما خرج عن هذا النطاق ابتعد عما نفهمه من معنى السيرة الفنية او السيرة الادبية ، فحياة محمد لهيكل مثلا او كتاب «محمد علي الكبير» لشفيق غربال ، لا يزالان أقرب الى التاريخ ، وان زاد الاول على الثاني بجلبة الاسلوب ورنين التعبير . ومثل ذلك يقال ايضاً في كثير من هذه السير والتراجم التي لا تزال تعرض تاريخ فترة كاملة تحت اسم فرد واحد ، ومن الخطأ ان يتناول النقاد هذه الكتب بالنقد مثلما يتناولون الأثر الفني ، بل النقد انما ينصب فيها على الرواية التاريخية ، والانصاف في الحكم ، والقدرة على التعليل .

ومن أبين المحاولات ذات الطابع الادبي في السيرة الحديثة ، «حياة الرافعي» للعريان ، وعبقريات العقاد ، وما يلحق بها من سير للمؤلف نفسه ، و« جبران » لميخائيل نعيمة ؛ و«منصور الاندلس» لعلي أدهم . وتتباين هذه السير فيما بينها ، وتختلف في مدى اقترابها من الطريقة الادبية في كتابة السيرة وفي مدى ابتعادها عنها .

أما «حياة الرافعي» للعريان فينقصه العنصر الهام الكبير الذي يجب ان تقوم عليه السيرة وهو التمشي مع حركة النمو والتطور في البناء ؛ فقد جمع العريان فيه الفصول عن الرافعي جمعاً ؛ وميز وحدد ، فلم يرسم للرافعي صورة متدرجة مكتملة . ولكن «حياة الرافعي» لا يزال يتميز بقسط كبير من الصراحة ؛ وهي صفة عزيزة في كثير من السير ؛ ولعل العريان من اول من شجعوا كتاب السيرة على اعتناق هذا المبدأ ، حين تحدث حديثاً صريحاً عن حب الرافعي وعن بعض علاقاته بالاشخاص . وعلى الرغم من امتلاء نفسه بالحب للرافعي ، استطاع ان يتحدث عن بعض عيوبه ؛ ولكن هذا العطف افقده روح التهكم والسخرية ، فدافع عن تلك النقائص ، وجرى مع التمويه في عرضها ؛ وفاته وهو المحافظ في نظرته الى الاشياء والناس ان ينتقد ما لا يمكن ان يفوت عين الناقد . خذ مثلاً حديثه عن موقف الرافعي في الوظيفة ، وتغيبه عنها وعدم التزامه بالحضور في الساعات المعينة حيث يقول : «لم يكن للرافعي ميعاد محدود يذهب فيه الى مكتبه او يغادره ، فأحياناً كان يذهب في التاسعة او العاشرة او فيما بين ذلك ، فلا يجلس الى مكتبه إلا ريثما يتم ما أمامه من عمل على الوجه الذي يرضيه ، ثم يخرج فيدور على حاجته فيجلس في هذا المتجر ، وقتاً ما ، وعند هذا الصديق وقتاً آخر ، ثم يعود الى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل في غيبته وقد لا يعود . . .»[1] تجد ان العريان يتحدث عن شيء كأنه امر طبيعي ، دون ان يثير في نفس القارىء امتعاضاً لهذا

---

(١) حياة الرافعي : ٩٣ .

الـذي كان يحـدث ، او يتهكم تهكماً خفيّاً بفهم الـرافعي لمعنى حـرية الاديب او العبقـري . غير أنـه قد يمس هـذه الناحيـة مسـاً خفيفاً في مثل قـوله : «على أن الـرافعي كان لـه مرتب آخـر من عمله في المحكمـة هـو ثمن مـا كـان يبيـع من كتبـه للمـوظفين والمحامين واصحاب القضايا الذين يقصدون اليه في مكتبه لعمـل رسمي ؛ وكـانـت ضريبـة فرضهـا الرافعي من طـريق الحق الـذي يدعيه كل شاعر على الناس ، أو فرضها أصحاب الحاجـات على أنفسهم التماساً لرضاه . ليت شعري ، أكان على الرافعي ملام او معتبـة أن يفعل ذاك؟»[1] وليست المسـألة مـلام او متعبـة، ولكن الكاتب كان يحس إحساساً خفياً بأن في موقف الرافعي ما ينتقد ، ثم لا يستطيع ان يعتذر عنه اعتذاراً قوياً . وأحسب ان العريان في هذا الكتاب لم يتحرر تحرراً كـاملاً في عـرضه لجـوانب الضعف في الـرافعي ، ولكنه ـ مـع ذلك ـ أعـطانا صـورة حية لا انمـوذجاً جـامداً ، وانتفع كثيراً اثنـاء المصاحبـة الشخصية لصـديقه ، من اعترافات الرافعي نفسه ، ومن المشـاهدة ، ومن بعض الـوثائق ، ومن صلاته بمن يعرفون الرافعي . غير انه تعجل كتابة هذه السيرة ولم يكن قد خف حزنه على صديقه، فلم يستطع أن يسلم من بعض الميل ، وفاته بعض الوثائق اللازمة ، كرسائل الـرافعي الى الشيخ أبي ريـة ، وهي رسائـل نشرت بعـد صدور الكتـاب ، ولـم يطلع العريان عليها . ومهما يكن من نقـائص هذا الكتـاب فإن العـريان في محـاولته أن يفـرد الرافعي بـالتقديـر ، وأن يعـطيـه مـا يعـطي

---

(١) حياة الرافعي : ٤٢ .

العباقرة من تمييز ، قد حقق ـ عامداً أو غير عامد ـ أمراً آخر ؛ وذلك أنه قرب المسافة بين الرافعي والقراء بدلاً من ان يباعدها ، فاذا الرافعي انسان طبيعي يهدأ ويثور ، ويضعف ويقوى ويرضى ويسخط ، ويضحك ويعبس ، وبينه وبين القراء وشائج تختلف كثيراً عن الوشائج الادبية التي تربطه بهم .

وعلى العكس من هذا موقف العقاد في «العبقريات» ، فإن أشخاصه في حقيقتهم إنما يعرفون بهذا الوضع الطبيعي الذي يخلطهم بالناس ليميزهم منهم ، ويحكم لهم بالعظمة من أجل هذا الموقف نفسه أيضاً ؛ ولكنهم ، حين يتحدث العقاد عنهم ، يبتعدون كثيراً فإذا هم صنف آخر من البشر . وقد حدَّ العقاد من حريته في الكتابة ثلاث مرات : مرة حين افترض القداسة فيمن يترجم لهم ، وحاول ان يبرر ما يحسبه الناس خطأ ، ومرة أخرى حين اختار ان يتحدث عن العباقرة لا عن الناس العاديين ، وثالثة حين اختار للكتابة شخصيات لا يملك الشواهد الدقيقة عنها ، فاذا وجدها ، وجد الاضطراب الكثير . ونجم عن هذا كله انه لم يكتب سيرة ، وانما كتب فصولا بعضها يتميز بالنظر الدقيق النافذ ، وبعضها يعتمد على قوة الذكاء في الفحص والتبرير ، كما هي الحال في كتابيه «عبقرية محمد» و «عبقرية عمر» ولكن العاطفة الدينية قد حصرته في دائرة ضيقة ، فليس هو العقاد الناقد الطليق ؛ وقد أصاب سيد قطب في بعض قوله عن هذه العبقريات : «هي ليست سيرة على طريقة السيرة العربية وليست ترجمة على طريقة التراجم في اللغات الاوروبية ، انما هي صورة

تتألف من بضعة خطوط سريعة حاسمة يبرز من خلالها انسان»[1] أصاب في بعض هذا القول حين ذكر ان عبقريات العقاد ليست سيراً ، وأخطأ في قوله انه اراد أن يبرز من خلالها انساناً ، فالصورة الانسانية لا تبرز بمثل هذه التقريرات الحاسمة التي يرسلها العقاد ، ولا تبرز بتلك المقدمات التي يدمجها في أول كل فصل ، ولا تظهر بوضوح وراء تعالي العقاد نفسه في عرض شخصياته - ذلك التعالي الذي يجعله أسير الفذلكة الذهنية ، والتمحل الشديد ؛ فعمر رجل عظيم والنبي انسان عظيم ، ومعاوية رجل قدير لا عظيم ، - كل هذا تمحل فارغ يدل على نشاط ذهني ولكنه نشاط مضيع ، فإن الرجل العظيم لا يكون عظيماً الا بعنصر الانسانية فيه ، والقدرة صورة من صور العظمة ، ومن كان كمعاوية ، في نظر معاصريه ، اسود[2] من عمر نفسه لا تثبت له القدرة لتنفى عنه العظمة ، ولكن تحمل العقاد يجيء في بعض الاحيان ممجوجاً . هذا وإن محمداً عليه السلام حاضر في أنفسنا بسيرته من حيث هو صديق وأب وزوج ورئيس ، على وضع طبيعي بسيط حيّ صادق قريب ، فلا يكون موقف العقاد في عرضه لهذه الخصائص من شخصية الرسول الا موقف النائي الذي يقرر وينشىء احكاماً وقواعد ملزمة ، ويبعد عن الحادثة التصويرية ، ويستل قلمه للمناقشة والحساب ، لا للبناء الايجابي ، ويستطيع القارىء العادي ان يحس بوجود «محمد الصديق» - مثلاً - من الحكايات البسيطة الواردة عن مواقفه مع

---

(١) كتب وشخصيات : ٣١٥ .

(٢) اي أوضح في خصائص السيادة .

أصحابه ، أكثر مما يحس به في فصل يكتبه العقاد عن هذه الناحية . ومن هنا يتبين لنا خطأ سيد قطب حين يقول : «فتتعرف على الفور من هو هذا الانسان الذي يحدثك عنه ، وتتبين سماته وملامحه من بين الملايين أو من بين الالوف التي ينتمي اليهم ويندمج فيهم ، كما تستطيع ان تجزم بصحة الاخبار والحوادث والاعمال التي تنسب اليه أو عدم صحتها ، ولو لم ترد في دراسة العقاد له ، لانك اصبحت تعرفه وتدرك خصائصه وتلحظ مزاجه»[1] . وهذا كلام مدخول من ناحيتين : الاولى ان العقاد لا يكتب سيرة على الوجه الكامل حتى يقدم لك صورة انسان ، والثانية ان من المستحيل ان تجزم بصحة الاخبار والحوادث التي تنسب لبطل السيرة لانك لا تعرفه الا من خلال نظرات العقاد وترجيحاته ، وهي ترجيحات تتسق مع مقدمات وضعها بنفسه ، واختار من الشواهد ما يناسبها . وهذه ناحية تتضح حين تنتفي صفة القداسة عن الشخصية المترجمة ، ويقف العقاد منها حراً في حبه وبغضه ، كما فعل في كتابه : معاوية بن ابي سفيان في الميزان» . ففي هذا الكتاب ابرز مثل على اختيار العقاد للرواية التي تناسب فكرته وتصوُّره ، دون تمحيص ، وعلى نفي كل ما لا يلائم السياق العام في فكرته . فمثلاً افترض العقاد ان معاوية قدير لا عظيم ، ثم ذهب يستعرض صفاته وأخلاقه ، على هذا الاساس ، فقبل روايات ضعيفة مدخولة ، واستشهد بتلك المواقف الخطابية التي ألفت بعد عهد معاوية ، كمواقف بكارة الهلالية وغيرها ؛ واقتضاه فرضه الاول أن يثبت لمعاوية

---

(١) المصدر السابق : ٣١٥ .

نوعاً من الدهاء الذي يستعمله جواسيس الاستعمار في شراء بعض الذمم الخاوية ، كما اقتضاه ان يقلل من قيمة صفة الحلم عنده فيصف حلمه بأنه امتناع غضب ، ليشفع ذلك بفصل يستنتج فيه ان الامويين لم يعرفوا الشجاعة ابداً . فاذا اصطدم بيزيد بن ابي سفيان مثالاً على حب الاستشهاد ، قال انه لم يكن أخاً شقيقاً لمعاوية . وهكذا هو ، يظل يلتوي ويتمحل ويفترض ، وانما جاءه الخطأ من التحيز في التقدير ، ومن العيب في تصور الناس والعصر ، وليس يسيء شيء الى التاريخ كهذا الذي فعله العقاد ، وليس يشوه الحقيقة مثل قبول الروايات دون نظر ، أو وضع الافتراضات دون برهان . ونقطة واحدة لا أريد ان أشفعها بغيرها في هذا المقام ، توضح ما أعنيه وذلك هو قوله : «ومعاوية كان يريد النزاع بين اليمانية والمضرية، ولم تكن له من خطة ثابتة فيه غير التفرقة بينهم تارة الى هؤلاء وتارة الى هؤلاء»[1] وارسال هذا القول على هذه الطريقة مخل بالامانة ، فاضح لأمر الهوى ، وليس هناك من يحترم الصدق التاريخي فيقدم على هذه الدعوى؛ ولقد كان العقاد قادراً على ان يرسم من معاوية ظلاً ضئيلاً ونهازاً كبيراً ، ويجرده من كل خير دون أن يسمع من ضميره منبهاً أو يجد من نفسه زاجراً ، ولكنه أراد أن يظهر بمظهر المنصف ، فكانت محاولته سمة من سمات الظلم العبقري . لانه انما ابتدأ يحاكم شخصية معاوية ، وهو مبغض له ، وأول شرط في النظر الى الاشخاص ان نحكم عليهم وقد تجردنا قدر الامكان من الحب والبغض ، أو أن نعالج سيرهم بشيء من التعاطف ، أما

(١) معاوية بن أبي سفيان : ٧ .

الكراهية واعتماد الذم والتحقير ، وتصغير الجوانب العظيمة في أحد الناس ، فأمور منافية لروح التاريخ أولاً ولكتابة السير ثانياً .

فالعبقريات أو ما كتبه العقاد على مثالها ، ليست سيراً بالمعنى الدقيق ، ولكنها تفسير لبعض مظاهر الشخصيات الكبيرة والاحداث والاقوال المتعلقة بها ، على قاعدة شبيهة بالتحليل النفسي وليست هو ، وانما هي لباقة في العرض ، ومهارة في اللمح والتفسير . ولا يستقصي العقاد في هذه النماذج ، وانما يتناول المتعارف المشهور بتفسير جديد ، وهذا تقصير شديد اذا اغتفر في بعض النواحي فلا يغتفر في دراسة الشخصيات الاسلامية لان الروايات عنها مبثوثة في مصادر كثيرة ، وبعضها يكمل بعضاً أو ينقضه ، فالاكتفاء بالحدود المشهورة لا يغني الدراسة في شيء ، فكم من صور وشخصيات شوهتها الروايات المشهورة. ومن خطر هذه الطريقة ان يستعملها من لم يؤت ذكاء العقاد ، وقوة سفسطائيته ، وشيئاً من فهمه النفسي ، فتصبح كتابة السيرة دجلاً يزوَّر به التاريخ ، وتنحدر معه مكانة الحقيقة الموضوعية . وكتاب العقاد عن سعد زغلول أقرب كتبه الى السيرة الصحيحة ، فهنالك كان يملك من المقومات ما يفتقده في دراسة شخصيات الاقدمين من مصاحبة لسعد ، وفهم لطبيعة العصر وشخصية الامة ، ومسايرة للاحداث ، واطلاع على الوثائق الضرورية . ولكنه أيضاً في هذا الكتاب نفسه ، رسم تاريخ فترة من حياة مصر ، ولذلك افتقد كتابه الروح الفنية وسيطرت عليه الجهامة والجفاف ، وأصبح مضطرباً للاحداث المتعاقبة ، مع افتقار الى الفهم الدقيق للشخصية المصرية والعوامل المكونة

لنفسية سعد وشخصيته[1] .

وحيث أخفق العقاد نجح ميخائيل نعيمة في سيرة جبران ، لانه استوفى فيه عناصر السيرة الفنية ببراعة تتضاءل عندها اللمحات الذهنية التي يمضغها العقاد في كتبه مضغاً . وفيه إكتمل للسيرة وجودها في الأدب العربي الحديث ، من حيث الغاية والتطبيق . فقد كتبه كاتبه حين رأى أن جبران كاد يكون ، بعد وفاته بعام ، اسطورة من الاساطير ، قال : «فهو ليس جبران الذي رافقته خمس عشرة سنة وخبرت أحلامه وآلامه ، وقاسمني أشواقه وأفكاره ، وشاركته في أفكاري وأشواقي»[2] واعتمد الصراحة في تصوير صديقه ، وهو في صراع متطور مع الحياة ، وعرض لجبران في ضعفه وقلقه،وكشف عن البون الواسع بين حياته العملية ونظراته المثالية . ولم يخجل من أن ينظر بعين الناقد الساخر الى كثير من متناقضات جبران ، كل ذلك في بناء فني جميل لا تشوبه الا بعض المقدمات التي يتورط العقاد في مثلها الى حد الاملال. ولكنه في أغلب فصول كتابه يجعلنا نعيش مع جبران ونحس به في صراعه مع الحياة احساساً دقيقاً ، مستعيناً بفهمه النفسي الذي يتغلغل الى اعماق الامور فيفسرها ويجلوها ويربط بين ظواهرها المتناقضة . وقد قدر لنعيمه ان يبرز الحقائق عارية دون ان يحاول الاعتذار او يختفي وراء الروابط العاطفية ، فجاء كتابه حياً خفاقاً بالحيوية ، كاملاً في تدرجه ونموه .

---

(١) انظر مقالة لاسماعيل أدهم في نقد هذا الكتاب (مجلة الامام عدد ٨ ص ٥٨١ أغسطس ١٩٣٦) .

(٢) جبران : ٦ .

ولا شك في ان هذااللون من السيـرة كان جـديـداً في العـالم العربي ، غريب الوقع في نفـوسهم ؛ فمن قائـل : ان نعيمة اراد ان يظهر نفسه على حساب جبران ، ومن قائـل انه أساء لصديقـه وشان سمعته ، ورماه بنقائص خلقية يستبعد مثلها من مثله ؛ وكل هؤلاء انما كانوا ينظرون الى جبران من خلال مثـاليته في آرائـه ، فلمـا نزل نعيمـة بجبران من سحب المثـالية الى ارض الـواقـع ، هوت آمالهـم ، وأصيبت نفوسهم بصدمة عنيفة وتمنوا ان يظل لهم جبران كما عـرفوه آثيـرياً روحـانياً . وهم معـذورون في شعورهم الى حـد ما ، فـان تحـطم المثـال أمـر يـزعـزع الثقـة في نفـوس المتـطلعين عليه ، ويهـوي بالاسـاس الفلسفي الذي أقـاموا عليـه حياتهم ، فكيف اذا كان الذي يحمل الفـأس بيده انسـاناً صـديقاً لذلك المثال الذي يتعبدون له؟ ويمثل هؤلاء الثائـرين على كتاب نعيمة وطريقته في كتابة تلك السيرة المـرحوم فليكس فـارس فإنـه كتب مقالة ضافية يرد بها على المؤلف ويستنكر طريقته ؛ فهو ينكر عليه ان يملأ الفراغ بحوار يضعه على لسـان جبران والاشخـاص المتصلين بـه ، ويقـول «فإن الـطريقـة الـروائيـة اذا صحت في الاسـاطيـر والاقـاصيص عن أشخـاص مجهـولين أو مختلقين اختلاقاً ، فإنها لا تصح مطلقاً في سرد الوقائـع عن رجل معـروف ملك البيـان بأطـرافه ، وليس لسـواه ان يتولى الكـلام عنه في أي موقف من مواقفه تجاه ربه او تجاه نفسه او تجاه أيٍ كان[1]» .

وقد يكون في هذا بعض الحق ، لأن نعيمة أسرف في الحوار

---

(١) رسالة المنبر : ٥٩ .

محاولاً ان يتقمص طريقة جبران ، ولكن فليكس يتعدى هذا ايضاً فلا يقبل ان يصدق الاحداث التي يسردها الكاتب عن حياة جبران . فهو مثلاً لا يستطيع ان يصدق قصة جبران مع الفتاة ميشلين التي حملت منه ، وطالبته بتزوجها فأبى ذلك ؛ ثم انه تعلق بماري التي كانت تعينه مادياً مع أنها قبيحة الشكل وتكبره بعشر سنوات بل يصمم في مرحلة من حياته على ان يتخذها زوجة شرعية له ـ لا يصدق فليكس ذلك كله لأنه يريد أن ينزه جبران عن موقفه من ميشلين ، ولأنه يريد أن ينزهه عن فساد الذوق في تعلقه بالمرأة الأخرى ، ويقول في حيرة وجزع : «جبران أخي أصحيح أنك فعلت ما يرويه صديقك الحميم عنك ، فتركت من لجأت اليك لتدعوك الى اتمام واجبك تخرج من بابك هاربة فازعة الى الضلال منك ، حاملة في دمها قطرات دمك ، وفي أنفاسها لهاث أنفاسك . . . أصحيح انك تركتها وبدلاً من ان تلحق بها لتقف دونها ودون الانتحار ، ارتميت على فراشك تنتحب كالاطفال؟ . . . أصحيح أنك رأيت جرمك ماثلاً امامك بهذه الصورة المخوفة ، ولم تتحرك لرد ما سلبته الفتاة المسكينة ونفسك الاشد مسكنة؟»[1].

وليس فليكس فارس في هذه النظرة الا رمزاً لتلك الموجة العاتية المستنكرة التي كانت تريد نعيمة ان يكتب امثولة اخلاقية عن جبران يستر فيها العيوب وان كانت حقيقية ، لأنه لا يجوز ان نصور الرجل الذي وقف قلمه للدفاع عن الخير والفضيلة ، غارقاً في حياة كلها قبح وشر. وتعود المشكلة من جديد في صورة ثورة على

---

(١) رسالة المنبر : ١٧٣ ـ ١٧٤ .

الصراحة وذكر العيوب أو تصوير الانسان في حدود انسانيته من نواحيها المختلفة ، ومن اجل هذه الشجاعة والصراحة نستطيع ان نقول أن نعيمة قد حقق ما يعجز عنه غيره ، حين واجه الناس بما ينفرون منه دون رياء أو مواربة ، فوضع في السيرة العربية ، ما وضعه ستراتشي في السيرة الانجليزية ، وأدى للفن شيئاً أسمى بكثير من الدرس التعليمي او الانموذج الجامد ، وخلق انساناً تام الخلق ، ولم يخلق مثالاً او تمثالاً .

ومن السير المقبولة سيرة « منصور الاندلس » لعلي أدهم ، فانها تتمتع بالبناء المتدرج وتدل على الفهم العميق لنفسية بطل السيرة وما يدور حوله من ملابسات ، ولكنها هادئة بطيئة الحركة وينقصها الحماسة الكامنة في اخلاص نعيمة ، ووقدة الذهن التي نحس بها فيما كتبه العقاد .ولا ريب في أن الذين يزاولون كتابة السير كثيرون ، ولكني انما اعرض نماذج متفاوتة ، وعلى تفاوتها فان اصحابها يشتركون في خاصية واحدة ، هي اتصال انتاجهم الادبي بالذهن اكثر من اتصاله بالخيال . فالعريان حين انتقل الى كتابة القصص التاريخية لم يبعد كثيراً عن مجال السيرة وانما استغل الخيال المرتّب بطريقة مشابهة أو مقاربة ، والعقاد اخفق في كتابة القصة حين انشأ «سارة» ، فعزف عنها ، ووجد خياله الذهني ـ ان صحت التسمية ـ مجاله الرحب في التراجم والمحاكمات العقلية .وعلي أدهم من التشريحيين الذين يحللون كل شيء كما يفعل الكيمياوي في معمله ، مع هدوء أشبه بالتقرير العلمي ، ونعيمة ناقد قبل ان يكون فناناً ، واذا كان هو ابرزهم قدرة على الخلق

فما ذلك الا لـطبيعة الصلة بينـه وبين جبران ، ولعله لا يبلغ هـذه القـدرة لو حـاول ان يكتب سيرة شخص آخـر . ولم لا نقول انـه اجـاد لانه انمـا كان يسخـر من نفسـه وصـوفيتـه الحـالمـة ، ومن تناقضها مع حاجاته المادية وهو يحاول ان يعري حقيقة جبران، كما فعل موروا عندما كتب عن شللي وعن مثاليته الثائرة التي ارتطمت بصخرة الواقع .

٣

الدرجة الفنية في السيرة

من الضـــروري ان نستعيـد بعض الحقــائق التي مــرت في الفصلين السابقين لنكون على بينة من أمر السيرة وصلتها بـالفن ، وفي مقدمة تلك الحقائق ان السيرة التـاريخية كـان ينقصها البنـاء الكامل أو الهيكل الواضح ، ومعنى هذا ان تزويدها بالهيكـل او البنـاء امر لازم لهـا قبل ان نحكم عليهـا أهي فن ام لا . لان كل عمل فني لا بد من ان يكون ذا بناء معين . ثم لا بد من ان تكون غايتها الرغبة في تـاريخ حيـاة فرد من الافـراد ـ او جانب كبيـر من حياته ـ لا تحقيقاً لنظرة خـاصة ، او فلسفـة محدودة .وهـذا يقتضي كاتب السيرة ان يدير الاحداث حول الشخص المترجَم ولا يسمح لحيـاة الاشخـاص الاخـرين بـالتحكم في منحى السيــرة ، ولا يعـرض من حياتهم الا المقـدار الذي يـوضح حيـاة بـطل السيـرة نفسه . وقد يتجـه الكاتب في طـريقته نحـو التحليل ، وقـد يتجه نحو التركيب ، ولكنه سواء سـار في هذه الطريق او تلك، عليه الا

يسخر الأحكام والاحداث وملابسات الحياة لعاطفته ، فان ازدياد العاطفة ينحرف بالسيرة عن وضعها الطبيعي ، بل لا بد له من ان يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي فاذا ضعف عنصر الصدق في السيرة لم تعد تسمى سيرة لان الخيال قد يخرجها مخرجاً جديداً ويجعلها قصة منمقة ممتعة .

ولنفرض ان سيرة تحقق لها البناء الكامل ، وكانت غايتها الرغبة في تاريخ حياة فرد من الافراد ، وكانت حياة هذا الشخص في الداخل او في الخارج محوراً تدور حوله الاحداث ، وشخصيته قطباً تلتقي عنده الشخصيات الأخرى : فهل بهذا كله تصبح السيرة عملاً فنياً ؟ أليس قيامها على عمل الذهن في الاختيار والنفي وفي محاكمة الروايات وقبول بعضها وردِّ البعض الآخر ، .ما يوحي بانها من هذه الناحية تفارق الفنون الأخرى التي لا بد أن تتدخل العاطفة في بنائها تدخلاً مشروعاً ؟ ثم أليس الالتزام بالصدق التاريخي فيها ملزماً للكاتب بأن يكبح جماح الخيال، وأن يقف عند الحقائق ، يعرضها ويرتبها ترتيباً خاصاً ؟ وهذا العرض والترتيب أهما في ذاتهما عمل فني أم عمل صناعي ؟ واضح ـ اذن ـ أن الشروط التي تتطلبها السيرة تبعدها من الدائرة الفنية بينما يحاول كاتبها أن يقترب بها من حرم الفن . بل لو تأمل القارىء عمل ليتون ستراتشي نفسه وهو أكبر قوة خالقة في تاريخ السيرة ، لوجده أخضع السيرة لغاية غير الغاية التي تفترض لها ، فكان يعيد للأذهان مهمة السيرة عند رجل مثل افلاطون حين دون في محاوراته آراء سقراط او رجل مثل فلوطرخس يتخذ من السيرة مطية لأظهار المبادىء السياسية التي يؤمن بها ؛ ومرة أخرى يظهرنا ما قام به ستراتشي على ابتعاد السيرة عن الفن الخالص ،

فقد كتب سيرة الملكة فكتوريا وسيرة الملكة **أليصبات** . أما الاولى فحياتها واضحة ، والمعلومات عنها كثيرة ، والوثائق المتصلة بعصرها محفوظة ، وأما الثانية فإن تراخي الزمان قد جعل حياتها غير واضحة ، وأقام سداً كثيفاً بين الكاتب وبين عصرها ، ورماه بالعجز دون التمثل الصحيح لعلاقات الناس وأذواقهم ومشاربهم في ذلك العصر. فحين كتب ستراتشي حياة فكتوريا تعلق بالحقائق ، وزمّ من خطران الخيال ، واختصر الكلام حين كانت تعوزه الشواهد ؛ أما حين كتب حياة **أليصبات** فإنه أطلق العنان لخياله وأفاض واسترسل . فماذا كانت النتيجة ؟ نجح هذا الكاتب نجاحاً منقطع النظير في سيرة الملكة فكتوريا ، وأدركه الاخفاق في سيرة **أليصبات** ، ودل اخفاقه على ان مبارحة الحقائق عند كتابة السيرة ، فيه كل الخطر على كيانها العام[1] .

والحرية في الخيال هي التي تضع الحد الفاصل بين القصة والسيرة ، فالقصصي حرّ في الخلق والبناء، يملك ان يتخيل مواقف ومحاورات ، وله الحق في أن يصف التيار الداخلي في أنفس الشخصيات التي يرسمها ، وقد يلجأ في بناء الشخصية الى بعض العناصر المستمدة من التاريخ ، ككاتب السيرة أيضاً ولكنه كثيراً ما يخلق العناصر التي يراها ملائمة لمواقف شخصياته ، فيتقمص هذا وذاك ، ويبني عالماً جديداً ليس له من صلة بالواقع الا إنه شبيه به ، وأن حدوثه أمر محتمل ؛ أما كاتب السيرة فلا بد له من مذكرات ورسائل وشواهد وشهادات من الاحياء ـ أحياناً ـ

---

(١) انظر تفصيل هذا عند فرجينيا ولف في The Art of Biography .

يعتمد عليها في كل خطوة، وكثيراً ما تعوزه الشواهد في أدق المواقف، وكثيراً ما تكون الشواهد التي يعتمد عليها متناقضة أو ناقصة أو منحرفة عن موضعها ، فلا حيلة له في مواطن النقص وانعدام الوثائق، وقد يعجز لقلة الأدوات التي يملكها عن أن يكشف عن درجة التناقض والتحريف ، فيقف مكتوف اليدين حائراً وتصبح كتابة السيرة أمراً عسيراً أو مستحيلاً ـ يقرأ فيما يقرأه من روايات ان أهل مصر حين زارها أبو النواس ، ثاروا على الخصيب أمير الخراج ، فخرج أبو نواس اليهم وخطب فيهم وأنهى خطبته بقوله :

فان يك باقي سحر فرعون فيكم فان عصا موسى بكف خصيب

فاذا لم يكن كاتب السيرة واعياً بما يعمل فانه يمر بهذه الحادثة ويقرنها بغيرها من الأحداث ، ولكنه ان كان شامل النظرة فيما يزاوله ، لا يلبث ان يستكشف كيف ان الروايات الأخرى حاولت أن تصور أبا نواس منحلاً فردياً لا علاقة له بالأحداث من حوله ، فموقفه هذا ونجاحه فيه ـ أو عدم نجاحه (من يدري ؟) ـ شيء جديد في سيرته ، كيف حدث هذا ؟ هل هو من محض الخيال ؟ أو هل كان صحوة من سكرة عميقة ؟ ويقرأ عن ابن خفاجة الاندلسي نصاً غريباً ممعناً في الغرابة لم يتعود العثور بمثله في السير ، لأن روح المحافظة حرمت عليها التدخل في الأمور النفسية والاشياء الخصوصية ـ يقرأ ان ابن خفاجة كان يذهب كل يوم الى مكان بين جبلين ويصيح هنالك «يا ابراهيم ! تموت ؟» ويظل يصيح حتى يقع مغشياً عليه، ثم تنقطع الرواية ، ثم لا يكون في سيرة ابن خفاجة شيء وراءها يوضح عقدة نفسية

خاصة ، وهو في شغفـه ليكتب سيرة ابن خفاجة يـقـف عاجزاً عن ذلك،لأنه لا يعرف من حياته الا شيئاً يسيراً ، لا يصنع سيرة ممتعة ويرى «في ظلمات وأشعة» رسالـة كتبتها ميّ جعلت عنـوانها «أنت أيها الغريب» ثم يقرأ هذه الـرسالـة نفسها منسـوخة من كتـاب ميّ مضمنـة في «أوراق الـورد» للرافعي ، فيـظن أن ميـاً كـانت تحب الرافعي ولولا أنها كـانت كذلـك لما تجـرأ الرافعي على أن ينقـل الرسالـة من موضعهـا في كتابهـا الى موضـع في كتابـه ، وتنبـني أمـامه لبنـة من لبنات ذلـك الحب ، ثم لا يلبث أن يجـد آخـرين يزعمون أن هذه الرسالة انمـا كانت مـوجهة لجبـران . للرافعي أو لجبـران ؟ أين هي الحقيقة ؟ مـاذا كـان مـوقف ميّ ؟ أحقـاً أنهـا كانت تعتمد اللجوء للقضاء من أجل هذه الجـرأة التي تطاول بهـا الرافعي ؟ وبينما هو يبني في ذهنه فصلاً من حياة الرافعي وعلاقته بمي تجد هذا الفصل انهار من أساسه ، لانه لم يستطع ان يصـل فيه الى الحقيقة الكامنة وراء هذه الظاهـرة . ويضرب صفحـاً عن كتابـة سيـرة الرافعي لمـا واجهه من عقبـات ، ويرمي ببصـره الى المتنبي الرجل الذي ملأ الدنيـا وشغل النـاس وفي نيته وهـو يرسم صـورته أن يسخـر من العظمـة والدعوى ، وأن يضـرب الغـرور الانساني في الصميم ، فيجد أن المتنبي في أشـد أوقات الصيف حرارة بالعراق كان يلبس قباء من سبع طاقات ، وانه ان دخل عليه ضيف لم يقم له ؛ وتسعفه السخرية ليقول : «ولا أدري أهو الكبر الـذي منعه من القيـام أم ثقل المـلابس التي كان قد تدثر بها» ، والى هذا الحد تراه قد نجا بطريقة لبقة مقبولة من أن يقال له: قـد زوّرت في سيرة أحمد بن الحسين . وبينا هو يجـري بالسيـرة الى غاية، تجده بلغ ثنية لا جواز عندها. فكل الظنون تجمعت من هنا

وهناك لتقول له أن أحمد بن الحسين لم يكن يحب سيف الدولة من أجل المال الذي وجده مجسداً على الارض فى شخصه ، وانما كانت دوافع هذا الحب مستمدة من حب آخر، هو هيامه بخولة أخت سيف الدولة . وتلح هذه المسألة على دماغه، ويثور لها خياله ، ويقلب المصادر وينقب الروايات ، ويعود وقد امتلأ أسفاً . ولو كان روائياً لم يكتف بهذا الخبر ، بل لاخترع منظراً من اللقاء بين المتنبي وخولة ولصوَّر لنا المتنبي في ساعة من ساعات الحنين ، وهو يلوح بسيفه في قتام المعركة ، ولتحدث عن نفسية المتنبي حديثاً طويلاً وهو يفارق حبيبته الى مصر ، انقياداً لروح الكبرياء فيه ، عارفاً انها رحلة لا رجعة بعدها .

ولا أظنني متشائماً أو غالياً حين أقرر أن كتابة سيرة لأحد الأقدمين عندنا تعد أمراً معجزاً ، وأن اكثر ما يحاوله الكتاب اليوم ليس إلا جهداً مبذولاً لترتيب بعض الروايات أو تصحيحها فليس لدينا الشواهد الضرورية من رسائل ومذكرات ، وهناك اضطراب في الأخبار تبعاً لاختلاف الميول عند أصحابها ، وأخذ هذه الأخبار دون تعيين التيارات التي تحركها في الخفاء ـ أو في العلن ـ أمر يقضي على الصحة التاريخية المنشودة في كتابة السيرة . ومن هذه الناحية ، يكاد الصدق التاريخي يبدو أمراً مستحيلاً ، فنحن عاجزون أن نبني سيرة فرد ما ، ان كنا لا نعرف من حياته إلا أخباراً متناثرة عن مشاركته في الحياة العامة دون نفسيته ، ودخائل حياته بين أصدقائه وأولاده وزوجه وخادمه . ثم هنالك شيء هام لا بد أن نتذكره ونحن نعالج سير الاقدمين وهو أنهم لم يكن لديهم خط قوي يفصل بين الخيال والواقع ، فهذا الفصل الدقيق سمة من سمات العصر الحديث ، ولذلك تمتزج

الحقيقة بالخيال في كثير من الاخبار التي وصلتنا ، لأن الخبر - من حيث هو - كان أمراً يستحق التسجيل دون نظر الى الظروف الكثيرة من حوله . ويقابل هذا عند المحدثين قلة اهتمامهم بالوثائق ، فقليل هم الذين يحتفظون بالمذكرات والرسائل ، وقد قوي الميل أخيراً عند السياسيين أو المتصلين بحياة السياسة وحياة الرقص والغناء الى كتابة مذكراتهم وتسجيل الرسائل التي تلقوها أو صدرت عنهم ، حتى كأن السير في المستقبل ستكون سهلة ميسورة حين يتناول الكاتب حياة رجل سياسي أو حياة أحد العاملين في ميدان الغناء والتمثيل . أما فيما يتعلق برجال الفكر والادب فان الامر لا يزال غامضا ، وتسجيل المذكرات واليوميات ، والاحتفاظ بالرسائل مما لم ينل - بعد - العناية الكافية .

وعند هذا الحد قد نسمع من يقول : هل يستطيع الكاتب المعني بالسير أن يعالج سيرة أي فرد كان ، حتى ولو توفرت لديه الشواهد اللازمة ؟ وهل كل سيرة تستحق الصياغة والعناية والبناء ؟ والجواب على ذلك ان كاتب السيرة جدير بالقدرة على صياغة أي سيرة تعرض له ، حين يجد أمامه المسعفات من الشواهد ، ولكنه يقبل على السيرة التي تعجبه أو تعجب روح العصر ونزعات القراء ، أو تثير لديه رغبة ذاتية ، لأن السيرة - كما شهد موروا - قد تكون تعبيراً ذاتياً عن نفسية كاتبها ، وبعض الحماسة للعمل نفسه يبعث وقدة من الحياة فيه . ولذلك كان من الطبيعي الا يقبل الكاتب على كتابة أي سيرة في الوجود - دون تمييز - أما أن كل سيرة تستحق أن تكتب فأمر كان يقول به جونسون وكولردج ، ولكن الواقع ربما أثبت غير ذلك ، فقد يكتب

المرء سيرة رجل من النكرات ، أو سيرة رجل عادي ، ثم ينسى كتابه بعد صدوره بقليل . ان المتعة التي تبعثها القصة في نفوس القراء ، لا تحققها السير الا ان كانت قائمة على شخصية لها مميزاتها الفارقة سواء كانت تلك المميزات مستمدة من الاحداث الدائرة حولها ، أو من طبيعة السلوك الخلقي والنفسي . وفي حياة كل شخص فترات جامدة متوقفة لا نشاط فيها ، ولا يستطيع كاتب السيرة أن يظهر هذه الفترات ، فإذا كثرت تلك الفترات الراكدة في حياة أحد الناس ،لم تكن حياته صالحة تماماً لأن تصاغ في سيرة،ولو كان شخصاً متألقاً في الحياة الاجتماعية . واذا كانت حياة انسان هادئة في الخارج قائمة على صراع في الداخل ،كان من العسير أن يصورها كاتب السيرة لأن الذي يفهم هذا الصراع ويعرف دواعيه وأوقاته هو ذلك الانسان نفسه ، فاذا لم يصرح بها أو يكتب مذكراته عنها بقيت محتجبة عن أعين الجمهور، مجهولة عند كل انسان، عدا صاحبها. ولذلك كان لا بد لنجاح السيرة من هذا التعاون بين الحيوية الخارجية المتصلة بالمجتمع ، والصراع النفسي الداخلي ؛ ولا بد من بعض التقلبات والاعاصير التي تجتاح حياة شخص ما لتجعل منها موضوعاً صالحاً للسيرة ، مثيراً لشهوة الاستطلاع . ان اندريه موروا نفسه لا يستطيع ان يكتب أي سيرة أخرى مثلما كتب سيرة شللي ،لأن في حياة شللي نفسه من الأحداث والتقلبات والثورات ، ما يبث المتعة في أكثر أجزائها ، ولا أظن كاتب السيرة تستهويه قصة حياة أحمد لطفي السيد ، أو أحمد شوقي ، الا من قبيل الوصل بين الحياة والانتاج الفكري والادبي ، ولكنه قد ينجح اذا كتب حياة جمال الدين الافغاني ،وربما فضل شخصيات ذات نهاية تراجيدية ، أو شبه

تراجيدية ، فكتب عن مصعب بن عمير ذلك الفتى المدلل الذي ثار على سلطة الأبوين ،واعتنق الاسلام ، وكان كل من يراه يلبس جلد الضأن بعد العز والغنى يهز رأسه دهشة لهذا التغير في حياته ، ولكن أي كاتب يحاول ذلك سيصدم بقلة الأخبار عنه وقد يختار سيرة الحسين بن علي لانتهاء حياته على شكل مروع ولكنه يفقد النمو الاول الذي منح الحسين نظرته السياسية وفكرته عن طبيعة الصراع الدنيوي بين الناس . وهو شيء لن يفقده في سيرة علي بن ابي طالب ، فان الخط البياني في حياته واضح ، ونقطة الانحناء في ذلك الخط هي وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وليس من العسير أن يلمح كاتب السيرة ذلك الصراع النفسي الذي شغل حياة علي في مرحلتها الثانية ، ولا طبيعة التغير الذي نقل الفارس المحارب الى قائد يرسم الخطط ، ولا تلك الوقفة المزدوجة بين السعي لبلوغ الغاية والندم على طبيعة الوسيلة ، ولا ذلك العرق التراجيدي الخالص الذي يختم الصراع بين الشعور بالحق والمصالح المجتمعة . وقد يجد في سيرة المنصور بن ابي عامر ، حاجب الاندلس ووارث الدولة الاموية ، شيئاً من «الوصولية» ، ولكنه لن يعدم ان يرى فيها قوة الشخصية ، وستتيح له كتابتها تصوير الصراع بين ذوي الطموح في المجالات المختلفة .

وأهم ما يلحظه الكاتب في السيرة،النمو والتطور والتغير في الشخصية مع مراحل التقدم في السن ، لذلك كان من المحتوم عليه ان يتابع التدرج التاريخي ، وأن يلحظ بدقة تأثير الأحداث في الخارج والداخل على نفسية صاحبها ؛ فليس أبو حيان

التوحيدي الذي كان يطوف البلاد على قدميه في زي صوفي ، هو نفس أبي حيان الذي كان يطوف بين مجالس الفلسفة ببغداد ، وليس ابن تومرت الفتى المغربي المغترب ، هو نفس ابن تومرت بعد ان لقي الغزالي وتخرج في المدرسة النظامية . وهناك فرق واسع بين المعتمد بن عباد في اشبيلية، والمعتمد في اغمات ، ومن واجب الكاتب ان ينمي عند القارىء مقدار الشعور بهذا الفرق ، في طريقة ايحائية لبقة بارعة .

واذا كان كاتب السيرة غير محتاج الى قوة كبيرة من الخيال الخالق ، فانه لا يستطيع الاستغناء عن الاطلاع الواسع ؛ فكل رواية ، وأحياناً كل كلمة ، لها قيمتها في انماء تصوره ، وفي تجلية السيرة التي يريد ان يكتبها . فما يفيده حقاً ان يعرف من طريقة الحسن البصري في الجواب ، ابتداءه حديثه في الرد بكلمة «ويحك . . . » أو ان يسمع أبا حيان التوحيدي يقول عن نفسه : «قَدَّمت مضيرة على مائدة الصاحب فامعنت فيها» فان كلمة «أمعنت» هذه تنقل له صورة، ربما لن تسعفه على تكوينها صفحات كثيرة من الاخبار . وكتاب مثل طبقات ابن سعد يفيده كثيراً لانه يعنى بدقائق الامور ، كالثياب التي كان يلبسها المترجم له ، وثمنها ولونها وطريقة لبسها ، وطريقة اللقاء والتحدث ووصف القامة واللون والمشية ، وهي دقائق يعز وجودها في مصادر أخرى .

ولا بد له من يقظة ذهنية مستمرة ، مشفوعة بارهاف خاصة في التمييز والحدس والترجيح ، ذلك لأن مهمة كاتب السيرة كمهمة أي فنان بعد ان تصبح المادة جاهزة لديه ـ مهمته هي أن يقرّب ويبعد ، ويستبقي ويرفض ، وان يضع ميزان الاختيار أمامه ، فما

كل شيء يستحق التسجيل ، وليس يكفيه ان يكون لـه ما للمؤرخ من قـوة ناقدة ، تعرف اين هـو موطن الضعف ، وتفـرز الروايـة المغـرضة من الـرواية الصحيحـة . بل لا بـد لـه من ادراك ذوقي دقيق ، يعرف به ما يحسن ان يبقيه أو ينفيه من الصحيح نفسه . فقد يجد في الروايات ان عمر بن عبد العزيز أُتي يوماً بمسـك من الفيء ، فوضع بين يديه فوجد ريحه ، فوضع يده على أنفه وقال : اخّروه حتى لم يجـد له ريحـاً[1] فاذا قبـل هذه الـرواية ، واطمـأنت اليها نفسه ، فأرى له ألا يثبتها لأنهـا لا تثير في نفس سامـع الحـديث الا الضحـك ، واذا أبى الا اثباتهـا فعليـه ان يمهـد لهـا في نفس القارىء ، بما يصيب المقاييس من تغيير وما يلحق المفهومات من تفـاوت مع الـزمن . وفي المصادر العـربية خـاصية لا تـوجـد في غيرها، وربما كانت من سيئاتها لا من حسنلتها وهي ان ليس هناك حـدّ لاستيفاء الاخبـار عن هـذا الشخص او ذاك ، على وجـه مقارب ، لان الاخبار مبعثـرة في صفحات الكتب وجمعهـا عمل شاق وضروري معاً، وهو السبيل الوحيد لضبط التصوير والتقدير . فلو أن كـاتبـاً أراد أن يتـرجم للزبيـر ابن العـوام ، ولم يقـع على الرواية التي تصور كيف كانت امه تقسو عليه في طفولته ، وتضربه ضرباً مبرحاً،لكان قد فقد شيئاً هـاماً حقـاً ، يفيده في الحكم على طفولة الزبير ، وعلى ما يلي فترة الطفولة .

فكـاتب السيرة أديب فنـان كالشـاعـر والقصصي في طـريقـة العـرض والبناء ، الا انـه لا يخلق الشخصيـات من خيـالـه ، ولا

---

(١) ابن عبد الحكم : ٤٤ .

يعتمد الشخصية الاسطورية ، ككاتب المسرحية ، فهو لا يستطيع ان يقـول شيئاً عن أوديب أو يمليخـا أو شهرزاد ، لأن شخصيـاتـه تتصل بالمكان والزمان ، ولا توجـد الا بوجودهما ؛ ومن ثم كـان في طريقته أقرب الى المعماري ، وهـو كالمؤرخ في قـوة النقد ، وكـالعـالم في القـدرة على التصنيف والتقسيم . واذا أنشـأ سيـرة ووفق في انشائهـا حقق غـايـة كـالتي يحققهـا القصصي ، أو زاد عليـه ، لأنه يمتـع قراءه بصـورة من الواقـع الملموس . ولاعـادة الحياة كما عاشها أحد الناس المرموقين في ذهن القارىء ، سحر لا ينكر ، ولكن العيب في شخصياته انها غير طويلة العمـر ، لأنه أعاد فيها عمل الطبيعة دون أن يضيف اليه ، ولم يمنـح الشخصية وجوداً جديداً الا بمقدار محدود .

وقد تعترضه مشكلة هامة اذ كان يكتب سيرة أديب أو شاعر . فأمامه الوثائق الجانبية ، وعنده أيضاً آثار ذلـك الشـاعر أو الأديب فالى أي حد يستطيع ان يستغل القصائد والروايات المسرحيـة في كتابته للسيـرة ؟ ليس ثمة من ينكـر ان القصيدة تحـوي التعبير عن نفس الشـاعـر ، وانـه قـد يكـون في جـانب من القصـة جـزء من شخصيـة كاتبهـا ، وان المسرحي قـد يوزع بعض خصـائصه على عدد من الشخصيات في الرواية ، أو يخص بها إحداهـا . ولكني لا أرى أشد تضليلاً من هذا العنوان «حياة فلان من شعـره» ، كما فعـل العقاد في كتـابه عن ابن الـرومي . والخطأ عنـد العقـاد في العنـوان لا في الكتاب ، فهـو قد قـام بحق التاريـخ ، حين جمع الاخبار الممكنة عن الشاعر ، ثم حاول ان يجد في الشعـر صورة لشخص ابـن الـرومي ، وبعض أخبـاره . ولا ريـب في ان اي دارس يستطيع ان يقول : ان ابن الرومي فقد ابنه الاوسط ثم ابنيه

الآخرين و . . . فاذا كانت هذه هي الحياة المقصودة فاستنتاجها من الشعر ميسور ، أما أن يترجم أحد الدارسين لشاعر ، بالاعتماد على شعره فحسب ، فتلك مسألة لا يمكن تحقيقها ، لأن الشعر لا يصور الا حالة وجدانية أو شبيهة بها ، في لحظات معدودات ، من حياة قد تكون غير قصيرة . كذلك أخطأ الذين حاولوا ان يكتبوا حياة شكسبير بالاعتماد على مسرحياته ، وان يلموا عناصر شخصيته ، من العناصر المكونة لشخصياته في الروايات[1] . بل ان العمل الفني حين يحتوي على عناصر من حياة الفنان نفسه أو شخصيته فان هذا لا يعني ان من حقنا اخراج هذه العناصر ، وادراجها في سيرة نكتبها ، لان هذه العناصر حين دخلت في البناء فقدت معناها الفردي الشخصي وأصبحت مادة انسانية محسوسة . وشيء آخر وهو أن ما يصرح به الفنان ، ربما لم يكن مما حدث له ، بل مما يحلم به ويتمناه ، وربما كان قناعاً يخفي وراءه شخصيته الحقيقية . فالعمل الفني ليس وثيقة من الوثائق التي تستعمل في كتابة السيرة ، واذا أخذ شيء من ذلك فلا بد أن يؤخذ بحذر بالغ .

وانا اتهم الطريقة التي قد يراها بعض الناس صواباً ، والتي تريد ان تكشف عن توفيق الحكيم أو تيمور او غيرهما في شخصياتهما الروائية او القصصية . بل أذهب الى أبعد من ذلك ، حين أرى اننا لا نعرف المازني من « ابراهيم الكاتب » ، ولا توفيق الحكيم من « عودة الروح » ولا العقاد من « سارة » ،

---

(١) انظر Theory of Literature pp. 66 - 71

ذلك لأن هؤلاء حاولوا ان ينسجوا جانباً من تراجمهم الذاتية نسيجاً قصصياً ، وللقصة مبناها ، ومتطلباتها وأحكامها ، فكم أجرى هؤلاء من تغيير في الواقع حتى تتلاءم قصصهم وتنسجم أجزاؤها ؟ وكم أضافوا اليها من خيالهم ؟ وكم موقف سابق فسروه ، من بعد ، التفسير الذي يلائم ما طرأ عليهم من نمو عاطفي وذهني ؟ غير انا قد نفيد من هذه الكتب لتعزيز الشواهد الأخرى ، من رسائل ومذكرات وروايات شفوية . أما ان نكتفي بهذه الكتب وحدها ، فأمر يشوه الحقائق ، ويباعد بيننا وبين الصدق التاريخي .

وليس من ريب في ان « سارة » أو « عودة الروح » أو « عصفور من الشرق » أو « ابراهيم الكاتب » تتضمن نواة من حياة أصحابها وبعض الأحداث التي وقعت لهم ، ومعالم من شخصياتهم وذواتهم ، لأن هؤلاء كتاب ذاتيون في هذه الكتب على وجه الخصوص ، فمحسن في عودة الروح يمثل كثيراً من توفيق الحكيم ، ولكنه ليس توفيق الحكيم ، لأنك تستطيع ان تقف عند كل منظر في القصة وتتساءل : أحدث هذا حقاً على هذه الصورة التي يصفها الكاتب ؟ أجرى هذا الحوار تماماً كما جرى في الواقع ؟ أحقاً ان الكاتب يستعيد مشاعره كما أحسها في تلك السن ؟ وإذا كنت تقطع جازماً بأن « محسن » هو الحكيم في هذه القصة فما صلة الحكيم بشخصية مصطفى ؟ إنه يتحدث عن مشاعره وحركاته كما لو كان يتحدث عن نفسه ، ولا يستطيع شخص ثانٍ ان يرى ما كان يحدث لمصطفى ، الا إن كان ظلاً له . فاذا استباح الحكيم ان يقص قصته الذاتية على حالها فهل

كان دقيقاً في استقصاء الواقع حين اخذ يتحدث عن مصطفى كأنه هو؟ أليس هذا الجزء من القصة يدل على ان الحكيم تخيل ما شاء له التخيل ، لا في مواقف مصطفى فحسب بل في سائر قصته؟ ها هوذا يقول واصفاً مصطفى ، وهو ينتظر ظهور سنية : « فتململ في مكانه وأخرج منديل الصدر الجميل الذي بلون بذلته ، فمسح به جبينه ، ثم شمر عن معصمه الأيسر ، ونظر في ساعة اليد الذهبية ، وقد خيل اليه أنه جلس قرناً ، ثم تأكدت في رأسه فكرة انه لن يراها اليوم ، فتحرك في كرسيه ، قائلاً في نفسه : انه ما دام يعلم ذلك فلماذا يجلس بالقهوة الآن »[1] ثم يحلل ما يدور في نفس مصطفى من هواجس ، ويتبعه في كل زاوية ومنعطف ، ويجريه انى شاء ، ويخلق له المشكلات ويحلها ، حتى كأنه هو مصطفى نفسه . وهذه الطريقة القصصية تجعلنا نعتبر حديثه عن محسن أيضاً مزيجاً من الواقع والخيال . فاذا وجدت شواهد يقينية فانها تفيدنا في معرفة العناصر الذاتية التي انتزعها الحكيم من نفسه ، وأضفاها على شخصية محسن ، أما أن يقال إن «محسن» هو توفيق الحكيم ، وأن ما جرى له في « عودة الروح » جرى للحكيم نصاً وروحاً ، فهذه غفلة تؤدي الى التفاهة في الأحكام .

وفي دافيد كوبرفيلد شيء كثير من حياة دكنز ، ولكن ذلك القصصي لم يلتزم ايضاً بالموازاة الدقيقة بين نفسه وشخصية كوبرفيلد ، بل خضع للروح القصصية ، فمثلاً تزوج دافيد من

---

(١) عودة الروح ٢ : ١٣٤ .

اجنس Agnes في القصة مع ان هذا هو عكس ما حدث في الواقع[1] .

يقول توماس هاردي في نقد من يعتمد على قصص الكاتب لاستنتاج العناصر الذاتية منها :« لا يزال مستر هجكوك يعتمد على قصصي في وصف شخصيتي ، وتحليله ليس من الذوق الحسن في شيء ، وأنا ما أزال حياً ، حتى ولو كان ما يقوله صحيحاً ، وهو تحليل قائم في الحقيقة على الأحداث والشخصيات في قصصي وكلها من صنع الخيال . واعتماد المستر هجكوك على القصص يؤدي الى أخطاء عديدة ، من ذلك قوله انني نشأت اتكلم اللهجة المحلية ، وهذا خطأ ، فقد كنت أعرفها ولكني لم اتكلمها فأمي لم تكن تستعملها الا حين تتحدث الى الفلاحين ، وأبي لم يستعلمها الا مع من كانوا يعملون عنده . وحديثه عن تعليمي مليء بالاخطاء ، فهو يقول انني درست في مدرسة ابتدائية ثم حرمت من الدراسة الكلاسيكية . وحقيقة الأمر انني درست سنة او اثنتين في المدرسة الابتدائية حتى بلغت العاشرة ، وبدأت تعلم اللاتينية وانا في سن الثانية عشرة . . . »[2] .

وخلاصة القول : ان السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال ، وانما لانها تقوم على خطة او رسم او بناء ، وعلى ذلك فهي ليست من الادب المستمد من الخيال ، بل هي ادب تفسيري ، وهذا النوع من الأدب كالأدب الذي يخلق خلقاً ، من حيث ان

---

(١) Aspects, p. 91

(٢) من قطعة اقتبسها مورروا في كتابه Aspects of Biog. p 89

صاحبه معنيّ بغاية محدودة تهديه في اختياره وترتيبه للحقائق ، وهو كالروائي والقاص ايضاً ، يحاول ان يكشف عن الصراع بين بطل سيرته والطبيعة ، وصراعه مع الناس الآخرين ومع نفسه وهو يحاول ان ينقل الى القراء حقيقة ذات قبول عام ، ولكنه لا يستطيع ان يحكم خياله في أجزائها ، وبدلاً من ان يقف موقف الخلاق تراه يقف موقف المستكشف المفسر لاشياء وأشخاص وجدوا في الحقيقة[1] . ولا بأس اذا وضع شيئاً من الحرارة في الحوار الذي يجريه في السيرة ، فذلك مع البناء العام لها ، كفيل أحياناً ان يحقق الخطة المؤثرة ، وان يثير العطف على بطل السيرة ، كما يستثير الروائي العطف على البطل التراجيدي . وإذا استكنه القارىء هذه الحقائق الموجزة استطاع ان يجد السر في تفضيلنا لسيرة جبران ، كما كتبها ميخائيل نعيمة ، فان العناصر من صراع بين بطل السيرة والناس ، وصراعه مع نفسه ، والحرارة التي حاول ان يبعثها في الحوار ، وذلك البناء الذي يتميز بقسط كبير من الأحكام ـ كل هذه تجعل مما كتبه نعيمة سيرة جميلة ممتعة فنية في كيانها العام ؛ ولكن هل حقق نعيمة في تلك السيرة ما يسمى « الخطة المؤثرة » ؟ والجواب على ذلك بالايجاب ، على قدر ما تسمح به حياة جبران ونهايته ؛ ومن كان يظن ان الكاتب قد أثار كراهية الناس لما انطوت عليه حياة جبران من تناقض مع فلسفته ونظرياته ، فانه مخطىء ، عاجز عن تذوق الحرارة على مرارتها ، وليس لديه القلب الذي يرى في الخطيئات الانسانية جانبها الطبيعي المقبول .

---

(١) Conolly, F.: The Types of Literature pp. 411 - 412

وحياة « الملكة فكتوريا » لستراتشي من الأمثلة البارزة ايضاً على إحكام الخطة والغاية وما يستتبع ذلك من التأثير الفني ، ففيها تتجلى القدرة على التأليف بين متعارضين ، هما التفسير الخيالي والحقيقة التاريخية ، أو كما تقول فرجينيا وولف : « لقد استغل [ستراتشي] كل قدرة المترجم في الاختيار والترتيب ، وتشبث بكل قوته ، بعالم الحقائق » . وسيظل هذا من اهم العناصر في السيرة ، لانه يمثل الحد القوي بين انجذابها مرة الى التاريخ ومرة الى القصة المتخيلة . والوثوق من هذه النقطة يخفف من الزلل او الالتواء او الانطلاق وراء الخيال ، كما يخفف من جفاف الحقيقة ، ويسمح بالتخلي عن حقائق غير ضرورية .

فاذا شاء القارىء أن يرى الحد الفاصل بين السيرة وما يسمونه « القصة التاريخية » فانه واجد في الثانية حرية اكثر في الخيال ، وشخصيات واحداثاً مخترعة ، وتشكيلاً جديداً ، ويختلط كل ذلك بشيء من التاريخ ، قائم على فهم عام لروح العصر وطبيعة ناسه . وقد يكتفي القاص باستيحاء التاريخ ، ومفهوماته عن العصور ، فيكتب تحت تأثير ذلك الاستيحاء من خياله ، على ان يكون صادقاً مخلصاً في التعبير عن روح الزمان والمكان ، دون تسوية للحقائق الكبرى ، والمشاكل العظمى . فجوهر القصة التاريخية متخيل ، والاحداث الهامة فيها حقيقية ، وليس هدفها ان ترسم حياة شخص ما ، كما تفعل السيرة ، بل هدفها ان تستعيد صورة الماضي لاثارة بعض المتعة التي لا يحققها التاريخ[١] في نفوس اناس ربما لم تسمح لهم ظروفهم

(١) Clark: Studies in Literary Modes p. 3.

وميولهم ، أو هما معاً ، بالدراسة التاريخية الجادة . أما السيرة فانها تزاوج متعادل بين حقائق التاريخ والقوة المتخيلة البارعة في الحذف والاثبات والبناء .

ويتمايز كتاب السير ، بعد هذا كله بالطريقة والأسلوب ، فقد يختار الواحد الطريقة الدرامية كما فعل ستراتشي في حياة الملكة فكتوريا ، ومثل ذلك فعل جرارد ولتر Gerard Walter في كتابه « يوليوس قيصر » ؛ إذ يكاد يكون كتابه هذا مسرحية ذات ثلاثة فصول : جعل قيصر في الأول منها وعنوانه « المؤامرة » هو البطل ، واتخذ كاشيوس وبروتس لتصوير المقاومة ، وكشف عن طبيعة المؤامرة ، وعن الدوافع عند كل من كاشيوس وبروتس ، ثم أثار عطف القارىء على قيصر الذي يترقبه الموت ، وفي القسم الثاني وهو « الاغتيال » - صور كيف كاد قيصر ينجو من الفخ المنصوب ، بعون من ايحاءات نفسه واحلام زوجه ، ثم كيف يقنعه بروتس بالذهاب الى مجلس الشيوخ حيث يقتل . وفي القسم الثالث تصوير لما نجم عن مقتل قيصر ، وللتناحر المزري على السلطة ، وارتفاع شأن انطوني[١] . وقد يختار الكاتب الطريقة الحكائية السردية ، كما فعل بوزول حين كتب سيرة جونسون . وربما وجد من الأنسب ان يستعمل طريقة التفسير والشرح وذلك جانب مما اهتم به نعيمة في سيرة جبران . وقد يمزج بين واحدة وأخرى من هذه الطرق ، حسب ما تمليه عليه طبيعة الموضوع ، إذ ليس من مرشد الى الطريقة المثلى الا حسُّ الكاتب نفسه ، ففي هذا وفي الاسلوب موطن للتفرد

(١) The Types of Literature p: 412

الذاتي . وقد تكون الحقائق التي يوردها كاتب السيرة معروفة مشهورة ، فميزته الفارقة تتضح في طريقة قولها ـ اعني في اسلوبه الأدبي ـ وهذا عنصر هام لا بد منه في السيرة الأدبية ، فأكثر الحقائق التي يعرضها العقاد في العبقريات معروف ـ كما قلت من قبل ـ للكثير من الناس ، ولكن طريقة عرض العقاد لها ، بذلك الأسلوب التقريري الحاد هو الشيء الجديد الذي يملك به القارىء او يكسب ثقته ، لانه في اسلوبه يوحي بان ما يقوله هو الصدق عينه ، لقيامه على ما يعتقده انه المقرر المرسوم من حقائق العلم والطبيعة الانسانية . ويفتنّ نعيمة في إظهار مقدرته الاسلوبية في كل فصل من فصول كتابه ، ويتردد فيه بين الاستعلاء الذي يشبه الحذلقة ، والبساطة الجميلة ، في حالي الابتعاد عن الموضوع والاقتراب منه .

وفي البناء والطريقة ، يختار الكاتب التقسيم الذي يريده ، فليس عند بوزول مثلاً تقسيمات موضوعية كما ان كتاباً آخرين قد يقسمون حياة بطل السيرة الى مراحل : اولى وثانية وثالثة الخ . . . وآخرون يخرجون على هذا النوع التقليدي ، كما صنع جرارد ولتر في سيرة قيصر ، وموروا في سيرة شللي ، وقد افتتح نعيمة كتابه بتصوير جبران على فراش الموت اي بدأ بالنهاية ، فلم ينقص هذا كثيراً من حب الاستطلاع لمعرفة التدرج في حياته ، بعد ان عرفت نهايتها ابتداء . وبدأ جلبرت هجت Gil-bert Highet سيرة وليم أوسلر بقوله :

« منذ ما يزيد على ثلاثين عاماً يوم كانت أكسفورد مدينة هادئة جميلة ، مات رجل كبير ذو وجه في خضرة الزيتون ، بعد

ان ظل يعاني آلام الزكام والتهاب الشعبتين طوال حياته ، ولما أن هاجمه الالتهاب الرئوي الهجوم الأخير عرف انه هو ما كان حينئذ « صديقه القديم » ـ كان رجلاً على حظ من القوة فدافع المرض عدة اسابيع ، حتى اعجزه التهـاب ذات الجنب والانفلونزا ، عندئذ ادرك ان النهاية قد دنت ، وكان هو نفسه طبيباً فلما أراد الطبيب الذي يتعهده ان يشرح له بعض الاعراض قال له : يا لك من مجنون ، لقد ظللت أرقب هذه الحالة شهرين ، وأنا آسف لاني لا أستطيع ان اقوم بالتشريح بعد الموت . وبعد بضعة أيام توفي مخلفاً وراءه ما تخلفه شخصية غريبة ، لكنها كثيراً ما كانت محببة الى النفوس » .

واذن فلا قيد على الكاتب من هذه الناحية ، فذلك جزء من حريته التي لا ينازع فيها ؛ وللكاتب ايضاً ان يرسم للسيرة طولاً يسمح باكتمالها ، ولكن الطول في السيرة ليس شيئاً صارماً كما هي الحال في المسرحية والقصة ؛ على ان الاتقان في تقدير الطول امر هام أيضاً ، ولكن استفاضة السير ، وخاصـة عند الغربيين ، أمر ملحوظ . ومن النادر ان تجد سيرة قصيـرة ، فبعضها يتجاوز المجلدين ، ويصل احياناً ستة مجلدات ضخمة ، ومن عرف « نابليون » او « بسمارك » لاميل لدفيج ، يدرك ان السير المكتوبة في الأدب العربي ، صغيرة بالنسبة لغيرها من السير ، وقد يكون الطول فيها حائلاً دون إقبال القراء عليها .

وينص موروا على ملاحظ صغيرة يجدر بكاتب السيرة ان ينتبه لها ، فمن ذلك انه لا يجوز له ان يسبق الزمن فيقول في حديثه عن شاعر مثلاً : « ولد هذا الشاعر الكبير . . . الخ » لانه

لم يكن شاعراً ولم يكن كبيراً يوم ولد ، وعليه ان لا يقيم السيرة على احدى المشكلات او المعضلات ، فان التجربة قد دلت على أن هذا النوع من السير ربما لم يلاق نجاحاً ، لأن خير السير ما اوحى بالدرس الخلقي ولم ينص عليه ، والا حالت السيرة قطعة تعليمية باردة . وثمة مطلب آخر قد يخطىء فيه المتمرسون بكتابة السير ، وهو دور الشخصيات الثانوية في السيرة ، فلا بد من بعث الحياة فيهم ، وتحريكهم والسير بهم في مراحل الحياة ، مع سير بطل السيرة نفسه ، ولا يجوز الاستخفاف بهم ، أو جعل أدوارهم طاغية تتجاوز ما قدر لهم في واقع الحياة(١) .

ولا ريب في ان السيرة تتدرج من النمو الى الفناء ، ومن المهد الى اللحد ، فهي ترسم فناء قد يشيع فينا الحزن والاسى ، وربما مهد لليأس طريقاً الى نفوسنا ، لأن واقعية السيرة هي واقعية على وجهها الظاهر المجرد المعني بالحركة في ارتفاعها ثم انحدارها وتلاشيها ، وستظل السيرة ما دامت هذه هي طبيعة الحياة الانسانية ، ولكن القيمة الحقيقية انما هي في الصراع ، وفي مدى القوة التي تمنحها القراء ، وهي تقدم لهم مثالاً حياً من أنفسهم . حقاً إن من يقرأ حياة شللي سيحزن كثيراً لذلك الموت المبكر الذي بدد الجهد والحيوية والطموح ، ومن يقرأ سيرة جبران سيشعر بشيء قريب من ذلك ، غير ان في أدوار حياة كل من هذين الرجلين ، ما يغرس الثقة في النفس الانسانية ، وما يوحي بأن دور كلّ منا يجب الا يمرّ يائساً خاملاً ، على الرغم من النهاية المحتومة .

---

(١) Highlights of Lit. p. 211

٤

السير الذاتية ـ نظرة عامة

ليس في الناس من يكره التحدث عن نفسه ، حتى الذين يقولون ذلك بألسنتهم إنما يعانون ألماً شديداً لكف انفسهم عما تشتهيه ، إذا هم قدروا على كفها . وكثير منهم من يجعل من ذلك وسيلة الى التحدث عن ذاته ، على وجه يوحي بأنه ينتزع الكلام عنها انتزاعاً ، وهو كاره له ، وإذا كان الحديث عن النفس بطريقة شفوية عامة حظاً مشاعاً بين ابناء الانسانية ، فانه من بعض صوره قسمة تختص بالأديب أو الفنان ، لأن « الأنا » حاضرة لديه مقنعة أو مكشوفة . وهي تتقنع وراء شخصيات المسرحية والقصة ، لأن صاحبها يحب ان يخلق المرايا المجلوة وينظر الى نفسه فيها ، وهي مكشوفة إذا كان يترجم لذاته ، ويتحدث عن سيرة حياته . وليست الترجمة الذاتية حديثاً ساذجاً عن النفس ، ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر ، ومن ثم كنا نستسيغها ونجد فيها

متعة عميقة ، بينما نهرب من الثرثارين الذين يملأون المجالس بالحديث عن جهودهم ومفاخرهم ، وننسبهم الى الغرور ، ونتهكم منهم اذا استطعنا ، لأنهم يصدمون فينا إحساسنا الذوقي بالصدق في الخبر ، ويسدون علينا المجالس العريضة حين يملأونها بدعواهم المتنفجة وغرورهم العريض . أما كاتب السيرة الذاتية فانه قلما يصدم مشاعرنا بما يقول إلا ان يطالعنا بمثل ما يقول سبنسر في ترجمته عن نفسه : « كانت لدي قدرة فائقة في العرض ، فقد كنت أُقدم مقدماتي وتعليلاتي ونتائجي بوضوح ونصوع لا يتمتع به الكثيرون . فمن اين جاءتني هذه المقدرة ؟ سرها ان جدي قضى حياته في التعليم وصرف ابي كل حياته في التعليم أيضاً . . . ولا يستطيع احد ان ينكر أني بطبعي نقادة . . . » أو كقول نيتشه في ترجمته الذاتية : « لماذا تفوق معرفتي معرفة سائر الناس ، ولم انا في الجملة رجل حاذق[1] ؟ »

فهذا مما تخونه اللباقة ، وان كان حقاً ؛ ومثل هذه الأقوال نفسها لا تصدمنا كما تفعل قصص المتنفجين عن انفسهم ، لأننا نعترف ، ونحن نقرؤها ، ان سبنسر كان موهوباً ، وان نيتشه كان عبقرياً ، والموهبة والعبقرية يغفران كثيراً من العُجب ، وتسجيل هذا العجب في كتاب اسهل قبولاً من اشاعته باللسان ؛ من ذلك حديث العقاد عن نفسه في « سارة » فانه اخف مئة مرة ، من حديثه عن نفسه للنفر الذي يحضر مجلسه كل جمعة .

وبين المتحدث عن نفسه وكاتب السيرة الذاتية فرق كبير ،

(١) Ecce Homo , p. 23

فالأول لا يزال كلما امعن في تيار الحديث يثير شكنا ، والثاني يستخرج الثقة الممنوحة له منا ، خطوة اثر خطوة ؛ ولذلك كان الأول شخصاً عادياً او اقل من العادي في نفوسنا اما الثاني فشيء مغاير له تماماً ، لاعتقادنا انه لم يكتب سيرته لملء الفراغ فحسب ، وانما كتبها لتحقيق غاية كبيرة ؛ أبسطها الغاية التي ذكرها سبنسر في سيرته وهي ان يجعل كتبه واضحة لمن يقرؤها ؛ او ليعرف الناس بالكتب التي ألفها والتي يزمع تأليفها ، كما فعل ابن الهيثم في سيرته حيث قال : اني لم أزل منذ عهد الصبا مروِّياً في اعتقادات هذا الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي ، فكنت متشككاً في جميعه ، موقناً بأن الحق واحد وان الاختلاف فيه انما هو من جهة السلوك اليه . . . فخضت لذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم الديانات ، فلم أحظ منها بطائل ، ولا عرفت منه للحق منهجاً ، ولا الى الرأي اليقيني مسلكاً جدداً ، فرأيت انني لا أصل الى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية ، وصورتها الأمور العقلية . . . فلما تبينت ذلك افرغت وسعي الى طلب علوم الفلسفة . . . وانا أشرح ما صنعته ، ليوقف منه على موضع عنايتي بطلب الحق ، وحرصي على ادراكه ، فما صنعته في العلوم الرياضية خمسة وعشرون كتاباً . . . » الخ : ثم يأخذ في تبيان ذلك على وجهه[١] .

وكاتب السيرة الذاتية قريب الى قلوبنا ، لأنه انما كتب تلك

---

(١) نقل مختصراً عن طبقات ابن أبي اصيبعة ٢ : ٩٣ .

السيرة من أجل ان يوجد رابطة ما بيننا وبينه ، وان يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته ، حديثاً يلقى منا أذناً واعية ، لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجهله ، ويوقفنا من صاحبه موقف الأمين على اسراره وخباياه ؛ وهذا شيء يبعث فينا الرضى ، وقد يأسرنا فيحول انظارنا عن نقد الضعيف والواهي في سرده ، ويحملنا على ان نتجاوز له عن الكذب ، ونتقبل اخطاءه بروح الصديق ، واذا أدى الكاتب هذه المهمة فقد رضي أيضاً عن نفسه لأن دوافعه الى التحدث هي الدوافع التي تحدو صاحب السر الى الافضاء بمكنونات صدره ، دون تحرج او تأثم . وقد يكون العالم الداخلي الذي يطلعنا عليه صورة لصراعه مع الحياة ، في الأحوال التي يعدها الناس طبيعية عادية ، وقد يكون نتيجة لفترات الاضطراب والحرب ومظاهر الاستبداد ، والثورات ، فهذه العهود مجال خصب تظهر فيه السير الذاتية بغزارة . وقد دل الاستقصاء على ان فترة الحرب الثانية كانت خصبة وافرة الحظ من السير الذاتية ، وان الكتاب كانوا على استعداد لتحقيق ذاتياتهم ، وانه كانت لدى القراء رغبة للهرب من الحاضر الى ذكريات الماضي ، وخاصة بين الكبار الذين منعتهم شيخوختهم من الاشتراك في الحرب[1] . ويقودنا هذا الى التساؤل ، لنعرف متى يكتب الكاتب سيرته الذاتية ، فتعيين هذا قد يساعدنا على فهم الغايات التي تكتب السير الذاتية من أجلها .

ونستطيع ان نقول في الجواب على هذا السؤال إن كل سيرة

---

(١) Prose Lit Since 1939

فانما هي تجربة ذاتية لفرد من الافراد ، فاذا بلغت هذه التجربة دور النضج ، وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من القلق الفني ، فانه لا بد ان يكتبها . والناس مهما يطل عليهم الابد وتختلف احوالهم هم أحد رجلين : رجل وصل الى حيث يؤمل وانتصر على الحياة وصعابها ، وأحسن التخلص من ورطاتها وشعابها ، ورجل كافح حتى جرحته الأشواك وأدركه الاخفاق . وكلا العاملين ، اعني الوصول والخيبة ، يبلغان بالتجربة حد النضج على شرط واحد : هو اكتمال التصور لاطراف هذه التجربة ورؤيتها عند التطلع الى الماضي ، على أساس من نظرة ذاتية خاصة ، ولولا هذا الشرط لكان كل انسان قادراً على ان يكتب سيرة حياته . وانك لتستمع الى اشخاص يقصون عليك قصصاً من احداث حياتهم ، يمتعك سماعها ويبعث فيك شيئاً من النشوة ، ولكنهم يعجزون عن أن يكتبوها سيرة كاملة ، لانهم يعجزون عن أن يروا مكانهم من الحياة ، ولا يرى الانسان مكانه بوضوح الا اذا اصبحت تجاربه ذات وحدة متكاملة ، وكانت لديه قاعدة فلسفية يتقابل بها وجهاً لوجه مع حقائق الوجود الأخرى ؛ وهذا فرق اصيل بين الفنان وغيره ، وهو سر تفرده في الحياة ، كما انه سر سعادته او شقائه ، اعني ما يصيبه من وصول او خيبة . ولست اقول ان التجربة في الحياة لا تكون الا روحية ، ولكن التجارب الروحية من أشدها حثاً على كتابة السير الذاتية ، ومن أكثر الحوافز خلقاً للسير الذاتية الجميلة ؛ ومن هذا القبيل اعترافات القديس أوغسطين واعترافات تولستوي ، والانصهار الروحي الذي صوره الغزالي في « المنقذ من الضلال » ومذكرات ماري بشكرتسيف Marie - Bashkirtseff . وتلي هذه السير

القائمة على أساس روحي ما كان صورة لصراع فكري ، وهنا تكون السير اقرب النماذج الى التجرد في الحكم والصدق في الخبر ، ومن هذا القبيل سيرة جون ستوارت مل ، وسيرة المؤرخ الانجليزي جبون ، وسيرة ادمند غوس Edmund Gosse التي سماها « الاب والابن » وصور فيها صراع جيلين مختلفي الاتجاه والنظر والميول . وكل هذا يضع هذه السير الذاتية في مرتبة اعلى من أنواع اخرى منها ، يكتبها بعض الصحفيين والبحارة والممثلين وأناس اتصلوا ببعض الرجال العظماء فهم يحققون وجودهم عن طريق تاريخ تلك الصلات[1] .

وإذا كانت السيرة عامة تتطلب لرواجها ان يكون بطلها شخصاً ذا تميز واضح في ناحية من النواحي ، فان هذا الشرط أساسي في السيرة الذاتية بخاصة ، إذ لا بد لشمول الرغبة فيها أن يكون صاحبها ذا صلة دقيقة باحداث كبرى ، او أن يكون ممن لهم مشاركة في بعض تلك الأحداث ، أو أن يكون ـ كما قلت قبل قليل ـ ذا نظرة خاصة الى الحياة وحقائق الكون ، قد تجعله سابقاً لأوانه متقدماً على أبناء عصره ، او ذا غاية كبيرة ، أو صاحب اخطاء جسيمة . فإن الجواذب التي تجذب الناس اليه انسانية اولاً ظاهرة ساطعة ثانياً ؛ ولذلك يموت كثير من السير الذاتية لأنها لا تستطيع ان تحيا في نفوس الناس لا من جانبها الانساني ولا من جانبها الفني .

يقول سلامه موسى : « ولذلك أيضاً يجب الا نستصغر قيمة

---

(١) انظر مادة Autobiography ، في Dictionary of World Lit.

السيرة يكتبها المتوسط العادي وحتى المنحط الشاذ ، لأن في تخلفه عن اللحاق او في عجزه عن السبق ، عبرة قد يرجع مغزاها الى المجتمع الذي عاش فيه ، فتقع تبعته على بيئته وليس عليه وعندئذ تكون سيرته دعوة الى هذا المجتمع كي يتغير ويتطور »[1]؛ صحيح انه يجب علينا ألا نستصغر قيمة سيرة كهذه ؛ ولكن ما الذي يدعو الى قراءة سيرة كتبها ذلك المتوسط العادي أو المنحط الشاذ ؟ واذا كان قد كتب سيرته وكان يحس انه عاش على خلاف مع بيئته وجعلنا نحس بذلك عينه ، فان هذا التميز يرفعه عن درجة المتوسط العادي والمنحط الشاذ ؛ ان سلامة موسى في سيرته اراد ان يقرر كيف كان شخصية ذات طوابع مفارقة للكثير من مواضعات عصره ، وهذا أمر يحسن بالكاتب ان يجعله مستنتجاً من سيرته جملة ، لا ان يفرضه على القارىء فرضاً ؛ اذ التقرير المحض في هذه الأمور لا يثبت حقيقة ولا ينقضها ؛ وسلامه موسى قد يكون سابقاً لعصره في نظر نفسه فقط ، ولكنه عاجز عن أن يجعلنا نؤمن بهذا الذي يدعيه مما كتبه في سيرته ـ والقليل من تلك السيرة هو الذي يستدعي منك ان تقرأه ، قراءتك لتجربة ذاتية ذات حدود واضحة بين ولادتها واكتمالها ، أما أكثر صفحاته فانه عرض لجوانب تاريخية ومقالات في بعض الموضوعات ، ولذلك تراه يستطرد فيه فيترك الحديث عن تجاربه ، ليحدثك عن التاريخ والاحداث والآراء التي سمعها أو قرأها ، ولولا شعوره بأنه ذو نظرة خاصة الى الكون والناس ، لما كتب سيرته ، ولما استحق ما يقرأ منها باسم السيرة الذاتية ، فانها

(١) تربية سلامه موسى : ١٢ .

أدخل في باب التاريخ ، وأقرب الى طبيعة التقديرات العلمية .

وسيرة أخرى ـ صاحبها أدنى حظاً من سلامه موسى من حيث صلته بالحياة الأدبية في عصره ، لم تنل شيئاً ـ إلا قليلاً من الذيوع والاقبال ، هي « سيرة حياتي » ـ كتبها توفيق فضل الله ضعون ، وهو لبناني قضى جانباً من حياته متنقلاً بين مصر والسودان وغيرهما ، وهي من خير الأمثلة التي يرد بها على رأي سلامه موسى ، فان احداً لا يخطر له ان يقرأها الا ان كان يكتب في تاريخ السيرة الذاتية ، وهي أشبه بمذكرات الرحالة ، مع مجموعة من الملاحظ السطحية عن بعض الشخصيات والمشاهدات ، ولها في هذا المجال وفي شيء من روح السخرية ، متعة لا بأس بها ، ولكن لا صاحبها ولا الاحداث المتصلة بحياته ، ولا الشخصيات التي ينقلها ، ولا طريقته في التعبير عنها ، مما يهم المجتمع الذي كتبت له ، لأن هذه كلها تعيش على هامش ضيق من الحياة والادب . وقد كتبت تحت شعور خاطىء بأن أي شيء من الذكريات يكتبه صاحبه فانه يفيد في إثارة العبرة ، وان كتابة السيرة الذاتية بدعة في الأدب العربي ، وهو تعميم له شطر من الصواب ، ولكنه خاطىء في جملته .

ومن أجل هذا أرى ان حظ السيرة الذاتية من البقاء منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع الداخلي او شدة الصراع الخارجي ، وانه قد تجري حياة فرد عظيم من الناس جريان الماء الرقراق على أرض من الحصباء ، ولكن عظمته في مكانه من

التاريخ تجعل لسيرته الذاتية قيمة وذيوعاً ، سواء أكانت تلك العظمة في دنيا الأعمال أم الأفكار . ولا بد لها كي تكتب من ان يتجسد فيها الماضي بخيره وشره ، لا على شكل ذكريات متقطعة ، ولا على شكل صور خارجية شاهدها الكاتب في الناس والاشياء ، بل على أساس من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها ؛ ومن ثم قد تجيء السيرة الذاتية صورة للاندفاع المتحمس والتراجع أمام عقبات الحياة ، وقد تكون تفسيراً للحياة نفسها ، وقد يميل فيها الكاتب الى رسم الحركة الداخلية لحياته ، مغفلاً الاهتزازات الخارجية فيها إهمالاً جزئياً ، وقد تكون مجرد تذكر اعترافي موجه الى قارىء متعاطف مع الكاتب ، وقد تمتزج هذه العناصر على أنصباء متفاوتة . فاذا كان الشخص الذي يترجم لنفسه ذا منزلة خاصة في المجتمع ، وكان يرمي الى إنشاء هذا التعاطف بينه وبين القارىء ، وأقام سيرته في بناء فني ، لم يغفل فيه قيمة الاسلوب وتأثيره ، وكان ماهراً في الربط بين الصورة الداخلية لحياته ومنعكساتها في الخارج ، فهنالك تتم سيرة ذاتية مكتملة ، وليس ثمة من سبب يحول دون تلقيها بالقبول ؛ أما اذا اقتصر الكاتب على تدوين مذكراته او يومياته ، او وجه سيرته لتصوير احداث اكثر من تصوير « ذات » ، فان عمله يلتقي مفهوم السيرة الذاتية وليس هو .

والغاية الأولى التي تحققها السيرة الذاتية هي الغاية المزدوجة التي يؤديها كل عمل فني صحيح ، أعني تخفيف العبء على الكاتب بنقل التجربة الى الآخرين ، ودعوتهم الى المشاركة فيها ؛ فهي متنفس طلق للفنان ، يقص فيها قصة حياة جديرة بان

تستعاد وتقرأ ، وتوضح موقف الفرد من المجتمع ، كما تمنحه الفرصة لابراز مقدرة فنية قصصية الى حد كبير ، وتريحه نفسياً لانها تستند الى الاعتراف ؛ فان كان يشعر باضطهاد المجتمع له كما شعر روسو ، تخفف من هذا الشعور ، وإذا أحس بوقع ذنوبه وآثامه ، أراح ضميره بالتحدث عنها ، وقمع نفسه بالاعلان عن سيئاتها ، ووقف منها موقف المتهم والقاضي معاً . وإذا خرج سالماً من لجة الصراع الروحي والنفسي والفكري الى ساحل من الطمأنينة ، رسم صورة لذلك الصراع ، وأنهى قصته بالهدوء الذي يعقب العاصفة ، والاستبشار الذي يأتي بعد اليأس ؛ وإذا تحوّل من دين الى دين ، أو من مذهب سياسي الى مذهب آخر ، أو من منتصر الى منهزم ، او من قاض الى متهم ، أو أخفق في خطة ، فلا بد له من ان يرضي ضميره ، فيكتب سيرة حياته ، منتحلاً ضروباً من التعليل والاعتذار و « التبرير » ، ولعل هذا العامل وما يكتنفه من غايات ، من أقوى البواعث على كتابة السير الذاتية ، وإذا كان متهماً في انظار الناس بريئاً عند نفسه وعند الحقيقة ، وإذا كان يحس بعظم الرسالة التي وكلت اليه ، والناس من حوله لا يقدرونها ولا يأبهون بها ، كان الكشف عن دخائل الأمور المتصلة بحياته ، طريقه الطبيعي الى إحقاق الحق وإعلان الصدق ، ووراء كل سيرة هذا الدافع النفسي او ذاك ؛ وغاية مرصودة ، لا يعلن صاحبها عنها ، لأنها كالصورة الكلية للعمل الفني ، تظل غائمة ، حتى تكتمل السيرة .

وليس لدى الكتاب من عمر محدود يقفون عنده لكتابة سيرهم ، فان نيتشه كتب سيرته وهو في الأربعين ، وكتبها سلامه

موسى حين بلغ الستين ؛ وأحمد أمين حين تجاوز هذه السن أيضاً ؛ ولكن لا ريب في ان الاسراع الى كتابة الترجمة الذاتية ، في سن مبكرة ، يفوّت على كاتبها أموراً كثيرة ، فقد يكتبها قبل أن تتضح له نتائج تطور خطير في حياته ، وقد يكتبها قبل أن تقف مبادئه في الحياة واضحة جلية لعينيه . وهناك خطر آخر: وهو أنه يحشد في سيرته تجارب كان من الممكن ان يفيد منها في بناء عدة قصص ، وفي خلق عدة شخصيات ، وفي نظم عدد من القصائد او استغلالها في أي فن ادبي آخر[1] ؛ وهذا ما وقع فيه الدكتور طه حسين في « الأيام » ، فانه قد « جمّد » تجاربه دفعة واحدة ، حتى كان هذا الكتاب ـ على انه من أوائل ما كتب ـ أغنى كتبه واحفلها وأكثرها إمتاعاً ، وأقربها الى العمل الفني ، لا لأن الدكتور طه حسين يحسن هذا النوع وحده من الفن الأدبي ، بل لأنه تحول بقلمه الى نقل واقعه كله ، أو أكثره ، على هذه الصورة ، فهو يتجنب ـ قدر استطاعته ـ ان يعيد هذا الواقع وتلك التجارب اذا كتب قصة او مقالة من بعد .

من كل ما تقدم يتبين لنا الى أي حد تعتمد السيرة التي يكتبها الشخص لنفسه على العنصر الذاتي ، بينما السيرة العامة ، قائمة في المقام الأول ، على الاتجاه الموضوعي . فلا بد ان يكون من يكتب سيرة غيره موضوعياً في النظرة الى صاحبه ، وإلى الاشياء والحقائق المتعلقة به ، كما لا يمكن ان يكتب سيرة نفسه إلا إن كان يبصر الحقائق المتعلقة بذاته على نحو ذاتي . وهنا موطن دقيق يحسن التنبه له ، وهو أن يكون الكاتب لسيرته

Prose Lit. Since 1939 . p 22 (1)

الذاتية موضوعياً أيضاً في نظرته لنفسه ، بمعنى أن يتجرد من التحيز لنفسه ، وهو يذكر موقفه من الناس والحوادث ، ولا ينساق مع غرور النفس وتعلقها بذاتها ، وحبها لاعلاء شأنها وتنقصها من اقدار الآخرين . وقل من يحسن هذا النوع من التجرد ، وكثير من الناس يحتالون عليه ، ليمنحوا ما يكتبونه أصالة وصدقاً ، ويقع في أنفس القراء موقعاً حسناً ، وأعيد القول هنا بأن هذا التجرد كان من نصيب بعض الكتاب المفكرين من مثل جون ستيوارت مل وإدموند غوس ، وهو إلى حد كبير ميزة السيرة التي كتبها أحمد أمين .

ولكن : هل هذا هو كل الفرق بين الترجمة الذاتية والسيرة عامة : أن الأولى ذاتية مع شيء من الموضوعية وأن الثانية موضوعية مع ذرات صغيرة من الذاتية ؟

نحن هنا إزاء فريقين يختلفان اختلافاً بيناً : أما الفريق الأول فيرى ان لا فرق بين السيرة الذاتية والسيرة عامة ، في الغاية والشكل والمضمون ، الا ان احداهما تكتب بصيغة المتكلم والأخرى بصيغة الغائب ؛ كلاهما فن لا علم والدليل على ذلك انه لو اجتمع عشرون كاتباً على كتابة سيرة لأحد الناس ، لتوفرت لدينا عشرون سيرة مختلفة ، على الرغم من أن المواد واحدة متفقة . ولو كتب هؤلاء سير انفسهم لطالعنا أيضاً مثل ذلك العدد من السير الذاتية المتباينة . ويعتمد القائلون بتشابههما وتقاربهما ، في اثبات هذا الرأي ، على مثل سيرة جونسون التي كتبها بوزول فيقولون : ان بوزول كان حقاً كاتباً قديراً للسيرة ، ولكن ما كتبه ليس الا صورة مزدوجة فيها سيرة جونسون ، وفيها

أيضاً سيرة بوزول نفسه ؛ ولم يتوفر لذلك الكاتب النجاح فيما كتب ، الا لأنه سعى السعي كله لتحسين نفسه بكتابة سيرته الذاتية ، فليست سيرة جونسون كما كتبها الا قطعة أو جزءاً من سيرته ، وليس جونسون إلا ذلك الشخص الذي تجسمت فيه كل أماني بوزول ، حين وجد فيه ـ مصادفة لا تعمداً ـ شخصية ترضي كل نزعاته الخلقية رضاء تاماً ، فكرس حياته وقلمه من أجله . إذن فالقول بأن صاحب السيرة موضوعي وصاحب السيرة الشخصية ذاتي ، تعميم يخرج على منطوقه كثير من الشواهد . والقول بأن الانسان يعرف ذاته خيراً مما يعرف ذوات الآخرين هو أيضاً قول مرسل لأن قاعدة « اعرف نفسك » لا تزال من أبعد القواعد عن حيِّز الامكان[١] .

وأما الفريق الآخر فيقول : إن بينهما شركة كالتي بين كثير من الفنون الأدبية ، ولكن القول باتفاقهما التام خاطىء أو بعيد عن الصواب . لأن الترجمة الذاتية نقل مباشر أما الترجمة الغيرية ـ أي ترجمة حياة الآخرين ـ فانها نقل عن طريق الشواهد والوثائق ، وشتان ما هما ؛ ثم إن الصفات التي تجعل السيرة الذاتية عظيمة ليست هي نفس الصفات التي تجعل السيرة الغيرية عظيمة : وفي رأس تلك الصفات أن يكون كاتب السيرة موضوعياً ، يلمح بسرعة ويفهم باحكام ويلم الحقائق ، ويحكم عليها ، ويمزجها مزجاً متعادلاً منسجماً ، ويصبغها باسلوبه . أما كاتب السيرة الذاتية فانه ذاتي قبل كل شيء ، ينظر الى نفسه

---

(١) The Art of Biography in the 18 th. cent. England, pp. 411 — 14

ويسلط أضواء النقد ودقة الملاحظة على شخصيته ؛ ومترجم غيره يقف موقف الشاهد لا القاضي اما مترجم نفسه فانه يجمع بين الصفتين . فليس للأول ان يحمل فكرة مقرَّرة سابقة عمن يترجم له ، وانما من واجبه ان ينقل صورته الى الخلف ، كما كانت تلك الصورة معروفة بين معاصريه .

ومثل هذا التقييد لا يمكن فرضه على من يترجم لنفسه فما يقوله يقبل على وجهه . ونتيجة لهذه الفروق تنبع السيرة الذاتية من الداخل ، متجهة نحو الخارج ، على عكس الاتجاه الذي تمشي فيه السيرة غير الذاتية . ونجاح المترجم الذاتي يقاس بنسبة الذاتية فيما كتب ، أما نجاح من يكتب سيرة غيره فيقاس بمقدار تجرده وغيريته[١] .

ويبدو من هذا الجدل حول الموضوع ان القول باشتراكهما مصحوب بالغلو ، ولكن اتفاقهما في كثير من المظاهر والعناصر امر طبيعي ؛ وكلما أصبحت السيرة تعبيراً ذاتياً عن نفس كاتبها وظروفه ، وكانت الشخصية التي يتحدث عنها هي مثله الأعلى ، قلَّت نسبة الفرق بين هذين الفنين .

ونخلص من هذا الى ان كاتب السيرة الذاتية لا يصور نفسه فحسب ، وإنما يحكم عليها ويحاول ان يتجرد من الرابطة العاطفية التي تشده بها ، فالى أي حد يمكن ان يكون هذا الكاتب الذاتي صادقاً ؟ وبعبارة أخرى ، ما هي درجة الصدق في السيرة الذاتية ، وهل من الممكن للصدق التام ان يتحقق فيها ؟

---

(١) باختصار عن كتاب The Doctor Looks at Biog. ص ٤٣ ـ ٤٦ .

والجواب على هذا التساؤل سهل لا يحتاج كثيراً من التدقيق. فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبي، مهما يخلص صاحبها في نقلها على حالها؛ ولذلك كان الصدق في السيرة الذاتية «محاولة» لا أمراً متحققاً. وقد عرض موروا للحوائل التي تحول دون تحقق الصدق في السير الذاتية: فعدَّ منها النسيان الطبيعي، والنسيان المتعمد، فنحن لا نذكر من عهود الطفولة إلا القليل، وبعض ما نذكره أحياناً نحاول إخفاءه لأنه لا قيمة له، وما دمنا ننشىء فناً فان عملية الاختيار هي التي تتحكم فيما نعمله، فنحذف ما نحذفه ونبقي ما نبقيه، خضوعاً لتلك الحاسة الفنية فينا. وهناك أشياء نستحيي من ذكرها، كبعض العلاقات الجنسية، وقليلون هم الذين لديهم جرأة روسو، بل كثيرون هم الذين يخجلون من أن يقروا روسو على تلك الصراحة. ثم إن الذاكرة لا تنسى فحسب بل هي تفلسف الأشياء الماضية، وتنظر اليها من زوايا جديدة، وتهدم وتبني حسبما يلائم تجدد الظروف وتغيرها، وتجد التعليل والمعاذير لأشياء سابقة، لأنها في عملية كشف دائم؛ ومعنى ذلك أن الماضي شيء لا يمكن استرجاعه على حاله، ولا مناص من تغييره، بوعي أو بغير وعي، ومن ضروب التغيير الواعي فيما نذكره ونكتمه أننا لا نقول كل ما نعرفه عن الاحياء، لئلا ينالهم الأذى من صراحتنا[1]. فليست هناك سيرة ذاتية تمثل الصدق

---

(١) انظر Aspects of Biography : ١٤٩ ـ ١٦٥ وقد نقل الدكتور بدوي هذا الجزء عن موروا، فيما يظهر، انظر صفحة ٤٤ ـ ٤٧ من كتاب «الموت والعبقرية».

الخالص ، ولذلك كان جوته محقاً ـ كما قال موروا ـ حين سمى سيرته « الشعر والحقيقة » إشارة منه الى أن حياة كل فرد انما هي مزيج من الحقيقة والخيال [1] .

وفي السير الذاتية بالغرب معالم كبيرة كان لكل مَعْلَم منها اثره في كتابة السيرة الذاتية وطريقتها ، وفي طليعة تلك السير « اعترافات القديس اوغسطين » فانها فتحت أمام الكتاب مجالاً جديداً من الصراحة الاعترافية ، وشجعت الميل الى تعرية النفس ، في حالات كثيرة تلتبس بالآثام ، او يثقل فيها عناء الضمير . ثم هنالك « اعترافات روسو » وقد خطت بالصراحة المكشوفة خطوة جديدة ، وكان صاحبها حين بدأ كتابتها يشعر أنه يقوم بعمل لم يسبقه اليه أحد ، ولن يوجد من يقدر على محاكاته فيه ، وقد عني روسو فيها عناية فائقة بالصراع الداخلي ، دون تفلسف كثير حول ذلك الصراع ، فجاءت اعترافاته مثلاً ساطعاً على نقلها الواقعي للحياة . وقد كان يظن انها أصدق سيرة كتبت ، ولكن الدراسة المتعمقة قد دلت على ان روسو كان أكبر مشوه للحقائق ، وهو اخلص الناس في نقلها . وثمة معلم ثالث له أثره ايضاً في السير الذاتية بالغرب ، وهو يوميات اندريه جيد ، وقد انفق فيها السنوات الطوال ، يحاول ان ينقل صورة نفسه باخطائها ووصماتها ، ولكنه مع ذلك ، من اقرب كتاب اليوميات الى الصراحة الكاذبة ، فقد شهد صديق من أصدقاء جيد ، موثوق بقوله ، انه ليس في كتاب الاعترافات كاتب مثل جيد ،

---

(١) Aspects of Biog. p. 179

تحيَّل في الصراحة ، ليكيف في شكل التمثال الذي ينصبه لنفسه ، كلما تقدم في العمر ، ويضع له قاعدة صلبة[١] .

ويطول بنا القول كثيراً لو اننا تناولنا أشهر السير الذاتية التي كتبت في الغرب ـ دع عنك إحصاءها ـ ولكن المتطلع الى قراءة هذا النوع من الفن الأدبي لا بد من أن يعرف السير التي مرت أسماؤها في هذا الفصل ، هذا إن لم يغره حب الاستطلاع بقراءة سير ذاتية أخرى ، فان فيها من التنوع والخصب ما يجعلها من أغنى الكتب بالتجارب الانسانية . فان كان يعجبه أن يتعرف الى النفوس الكبيرة والعبقريات الفذة في صراعها وتقلبها واخطائها ، فهو واجد في اعترافات تولستوي وأشباهها ، ما يرضيه . وان كان يريد ان يحس كيف تتمخض النفس الانسانية من خلال التيار العاطفي لمعانقة الفكر ، وتعيش في جحيم العاطفة العاتية لتبلغ المجرد ، وتبتدع لنفسها الحياة المرجوة من خلال الحياة نفسها ، وتشك او تؤمن تحت وطأة التشاؤم والتفاؤل ، ففي مذكرات ماري بشكرتسيف أروع قصة لأغرب حياة نفسية ، عاشتها فتاة اكرانية مسلولة ، تحلم بالمجد وتعيش من اجله ، وتتخذ من كل شيء ، صغيراً كان أو كبيراً ، موضوعاً للتأمل والتحليل ، وقد كتبت مذكراتها لتقص للناس « التاريخ الكامل لأمرأة ، بكل افكارها وآمالها ، وما عانته من خيبة وأمل ، وما أدمى قلبها من خسة الناس ولؤم طباعهم ، وما نعمت به من جمال واستشعرته من مباهج واحزان . »[٢] .

---

(١) Highlights on Modern Lit. p. 213

(٢) الموت والعبقرية : ٦٧ وفيه فصل ممتع عن ماري بشكرتسيف : ٥٧ ـ ٧٢ .

وإذا كانت تستهوي القارىء صورة الصراع بين الجيل الفاني والجيل الصاعد ، بين الأب والابن ، بين النظرة الدينية المستسلمة وحرية الفكر ، فان كتاب « الاب والابن » لادمند غوس ، كفيل بتبليغ هذه الرسالة في صدق وتجرد ، مع قسط لازم من روح السخرية المغموس في غمار المأساة ، اثناء ذلك الصراع . لقد كان ادمند غوس ابناً لرجل عالم متدين وام متدينة ؛ ومنذ البدء نذره هذان الابوان ، للحياة الدينية الخالصة ، وعودا نفسه الوقوف عند الحدود الصارمة ، والاكتفاء بالكتب الدينية التي يريانها مفيدة له ، وإبعاد كل ما قد يقربه الى حب الحياة الدنيا من كتب ولذات ؛ وفي الثانية عشرة من عمره كان أبوه قد « عمَّده » في المذهب الذي يعتنقه ، واعتبره مسؤولاً عن توجيه الاتباع وهدايتهم ، وقراءة الصلوات لهم ، وهو يصف تدرج نفسه وتفتحها، واصطدامها بهذا الواقع الذي رسمه ابوه مرحلة ، موضحاً الى جانب هذا التغير النامي ، قوة الثبات ، بل التراجع ، في نفسية ابيه ، وانقطاعها عن العالم ، وازدراء الشهرة ، والتوفر على شؤون المذهب ، والارتياح لكل بادرة من التغير تظهر في أعمال ذلك الابن وأقواله . ولما وضح ان الابن أخذ يضيق ذرعاً بالتزمت ، وتتجه نفسه الى الأدب والحياة باقوى من اتجاهها الى الدين ، وتحاول ان تستكشف العوالم التي أخفاها ذلك الخناق الضيق في النظرة والنشأة ، عمل الاب - في فزع لا يخفى - على ان يوجهه فيما يعتقده انه الطريق السوي ، ناسياً أن « التدين ليس أمراً وراثياً وان ظلَّ يرجو ان يحققه عن طريق القهر »[١] . وأخيراً ، كتب لابنه رسالة يقول فيها « عندما

(١) Father and Son p. 294

جئت الينا في الصيف ، وقعت عليَّ نازلة ثقيلة ، فقد استكشفت مدى ابتعادك عن الله . لا أقول إنك استسلمت للتيار القوي من دم الشباب ، ووقعت ضحية لشهوات الجسد ، فلو حدث هذا ، وهو أمر مؤسف ، لارتفع صوت ضميرك الحي جهراً ، ولوجدت الهداية بالعودة الى الدم الذي ينقي خطايانا جميعاً ، والى الاعترافات وقتل الذات ، والى العفو والانابة الى الله . لم يحدث لك شيء من ذلك ، ولكن ما حدث كان أسوأ ، وهو ذلك الجحود الجاحد الراعب ، الذي ثار في عقلك وقلبك بقوة مخيفة . وانما أقول إنه أسوأ لانه ينحت أسس الايمان التي يقوم عليها كل دين صحيح ، وكل توجه حقيقي الى الله »[١] . حينئذ كان الابن قد بلغ الحادية والعشرين ، ورأى أن كتاب أبيه لم يدع مجالاً للتفاهم ، ولم يبق للصلح موضعاً ، فاختار ان يرفع نير الاستسلام عن عنقه ، ومضى دون أن يثير عاصفة أو يحسّ ندماً ، يشق طريقه في الحياة ، مستقلاً في تكييف ذاته ، وبناء معتقده ، وحياته الخاصة .

ومن أحدث ألوان السيرة الذاتية في الغرب ، اللون القصصي الذي يمثله كتاب « في البحث عن زمن ضاع » لمارسيل بروست ، و « صورة الفنان في شبابه » لجيمس جويس ، وكلاهما يتميز بالمزج بين الحركة الشعورية واللاشعورية في القول والعمل . ويتسم الكتاب الأول بالاتساع الذاتي لشمول النظرة التحليلية حتى للشخصيات التافهة ، ذات

---

(١) Op. Cit. p. 309

الدور الثانوي في الحياة ، كما يختص الثاني بالاندفاع المتحمس الذي يشبه التيـار المتدفق في استعـراض حياة الصبـا وفورة الشباب ، والثورة على نظام المدرسة ، والتزمت الديني ، وهو في ناحيته الأخيرة قريب الشبه بكتاب « الاب والابن » لادمند غوس ، لانه صورة للقلق الفكري ، الذي ينبع من محـاولة الانطلاق ، وراء حدود التربية الدينية الصارمة .

٥

السيرة الذاتية في الأدب العربي

ان تلك الطبيعة الثورية القلقة الجياشة ـ التي شهدنا شيئاً منها في الفصل السابق ـ ليست من المميزات الواضحة في السيرة الذاتية في الأدب العربي . فان طبيعة الاستسلام أغلب على هذا اللون من الأدب ، حتى عند أصلب شخصياته ، وأشدها تمرساً بالمصاعب ، وهي طبيعة يمثلها ابن خلدون نفسه ، على صلابة عوده ، لأنه إذا واجه المشكلة تنحى عنها لتمر ، او اختار الهجرة لئلا يضعف إزاءها ، وهو يعزل ثم يولى ثم يعزل ثم يولى ، ويتقبل هذه الأمور كأنها أحداث تجري بمعزل عنه وعن تفكيره وتقديره ؛ ويغرق أهله جميعاً في سفينة قادمة من تونس ، فاذا جوابه على هذه الفاجعة انه يريد زيارة مكة ليتعزى عمن فقدهم . ومعنى هذا ان الاحساس بالصراع الذي يخلق الفن، ضعيف في تلك السير الذاتية ، أما الصراع نفسه فحاضر في كل مرحلة من مراحل الحياة .

ويلي هذا العنصر في القوة ، عنصر التعري النفسي والاعتراف المخلص ، فهو أقوى ظهوراً من سابقه ، وخاصة عند أهل الاتجاه الروحي او الفكري ؛ فابن الهيثم يعترف بأن الاقبال على علوم الديانات لم يفده شيئاً ، فاتجه الى الأمور العقلية ، وهذه شجاعة لا يوازيها الا اعتراف الغزالي بأنه شكّ في كل شيء الا في البديهيات ، لولا ان الغزالي عاد من ثورته هذه الى الاستسلام الذي ألقى به في احضان التصوف . أما الاعتراف الذي يصيب حقائق الحياة الذاتية ، في السلوك العام ، وفي الاحداث الخاصة ، فشيء قلما يصيبه المرء في هذه السير الذاتية او المذكرات واليوميات . ولذلك نرى ابن حزم الأندلسي فذاً في تلك النتف الاعترافية التي ضمنها كتابه « طوق الحمامة » ، وهو زعيم مذهب ، وأخو تشدد بالغ في النظرة الدينية ، ومع ذلك نجده يقول : « وعنّي أخبرك انني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو انه على الشمس او على صورة الحسن نفسه ؛ وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تؤاتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبي ، رضي الله عنه ، وعلى ذلك جرى الى أن وافاه الأجل »[1] . ويتعمق ابن حزم استبطان أحواله النفسية في بعض مذكراته كأن يقول « وعني أخبرك اني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأ . . . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا

---

(١) طوق الحمامة : ٢٨ .

يجد الانسان وراءها مرمى ، فما وجدتني الا مستزيداً ، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمة ، ولا رهقتني فترة ؛ ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب ، فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل ، إلا وجدته مقصراً عن مرادي ، وغير شاف وجدي ، ولا قاضٍ أقل لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما ازددت دنواً ازددت ولوعاً »[1] .

ويتدرج من هذا التعميم أحياناً الى التفصيل الدقيق للحادثة الواحدة ، فيعرضها في صراحة ، قلَّ ان تجد لها مثيلاً . ولكن مما قلل من صراحته في الكتاب ، انه لم يستطع ان ينسب كثيراً من الوقائع الى نفسه ، فاكتفى بالتلميح أحياناً ، وكنى عن أسماء الاحياء مراعاة لمشاعرهم ، وفاته كثير من الذكريات لانه كان كما قال : « فانت تعلم ان ذهني متقلب ، وبالي مهصر بما نحن فيه من نبو الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الاخوان ، وفساد الاحوال وتبدل الايام . . . »[2] ولم يكتب احد في موضوع الحب كتابة قائمة على التجربة والمشاهدة ، والاعتراف وبعض التعمق النفسي ، مثلما فعل ابن حزم الأندلسي ، ولولا انه مزج كتابه بأشعاره الكثيرة ، والتزم فيه تقسيمات مصطنعة ، لاستوفى المتعة الصحيحة ، وما قصر عن الغاية .

والى جانب العاملين السابقين وهما روح الثورة والتعري ،

---

(١) طوق الحمامة : ٦٢ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥٤ .

نجد السير الذاتية والمذكرات واليوميات في أدبنا ، مفتقرة الى العمق النفسي ، الذي وجدنا بعض خيوط دقيقة منه عند ابن حزم الأندلسي . وهذا شيء يتمشى مع العنصرين الأولين ، ويعتمد الى حد كبير على التوافق بين الفرد ومجتمعه ، ونظرته الى نفسه والى الناس ، وهو اعمق بكثير من الفخر الفردي القائم على تعداد المآثر في الذات ، وملاحظة السيئات في الآخرين . ولا يزال مجتمعنا حتى اليوم يؤهل لهذه السطحية ، لأن التكأة الفلسفية للشخصية فيه ضعيفة أو مكسورة ، وقد نجد هناك براعة في نقل الحركة الخارجية في القصة والمسرحية والسيرة ، ولا نجد هذا الغوص داخل النفس ، إلا قليلاً ، وهو عمق تتبلور حوله الشخصيات ، وتعيش خالدة متميزة .

ويمكن ان نقسم السير الذاتية وما شابهها ، حسب كيانها العام وغايتها ، إلى الاصناف التالية :

(١) الصنف الاخباري المحض ، وهو يضم الحكايات ذات العنصر الشخصي سواء أكانت تسجل تجربة أو خبراً أو مشاهدة ، كتلك الحكايات التي يقصها الجاحظ وابو حيان والصلاح الصفدي والصابي والصولي وغيرهم عن نفوسهم ، وعن الأحداث التي صادفتهم ، كما تضم بعض المذكرات التي كتبها صاحبها من أجل الغاية التاريخية ، وهذا يشمل جانباً من السير التي تحدثت عنها في الفصل الأول ، ويشمل « مياومات » القاضي الفاضل ، والعناصر الذاتية في كتب الرحالة ، كرحلة ابن جبير والشيخ خالد البلوي وابن رشيد والعبدري ، ومجموعة من السير الذاتية مثل سيرة ابن سينا ، وموفق الدين البغدادي ، وعلي

بن رضوان الطبيب المصري ، وهمُّ كل واحد من هؤلاء ان يعـرف الناس اين نشـأ ، وكيف تعلم ، وكيف كانت قـابليته للعلم ، ومَنْ شيوخه ، وما هي الكتب التي ألّفها ، والبلاد التي زارها متنقلاً .

يقول ابن سينا في سيرته : « إن أبي كان رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها الى بخارى في أيام نوح بن منصور ، واشتغل بالتصرف وتولى العمل في أثناء ايامه ، بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى ، وهي من أمهات القرى ، وبقربها قرية يقال لها افشنة وتزوج ابي منها بوالدتي وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخي ، ثم انتقلنا الى بخارى وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، واكملت العشر من العمر ، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضي مني العجب وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين ، ويعد من الاسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخي ، وكانوا ربما تذكروا بينهم وأنا اسمعهم ، وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي ، وابتدأوا يدعونني اليه أيضاً ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند . وأخذ يوجهني الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلمه منه ، ثم جاء الى بخارى ابو عبد الله الناتلي ، وكان يدعى المتفلسف ، وانزله ابي دارنا رجاء تعلمي منه ، وقبل قدومه كنت اشتغل بالفقه والتردد فيه الى اسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين ، وقد الفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب ، على الوجه الذي جرت عادة القوم به ، ثم

ابتدأت بكتاب ايساغوجي على الناتلي . ولما ذكر لي حد الجنس : انه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب « ما هو » ، فأخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب مني كل العجب ، وحذر والدي من شغلي بغير العلم . . . . »[١] .

ويختصر ابن رضوان مراحل تعليمه على هذه الصورة أيضاً من الايجاز ، فيقول في جانب من سيرته : « فلما بلغت السادسة أسلمت نفسي في التعليم ، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت الى المدينة العظمى ، وأجهدت نفسي في التعليم ، ولما أقمت أربع عشرة سنة ، اخذت في تعليم الطب والفلسفة ، ولم يكن لي مال انفق منه فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة ، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم ، ومرة بصناعة الطب ، ومرة بالتعليم . ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم الى السنة الثانية والثلاثين ، فاني اشتهرت فيها بالطب ، وكفاني ما كنت أكسبه بالطب ، بل وكان يفضل عني الى وقتي هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين . وكسبت مما فضل عن نفقتي أملاكاً في هذه المدينة ، إن كتب الله عليها السلامة وبلغني سن الشيخوخة ، كفاني في النفقة عليها . وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين الى يومي هذا أعمل تذكرة لي ، وأغيرها في كل سنة ، الى ان قررتها على هذا التقرير الذي استقبل به السنة الستين . . . . . . »[٢] .

---

(١) طبقات ابن أبي أصيبعة ٢ : ٢ ـ ٣ .

(٢) المصدر السابق ٢ : ٩٩ ـ ١٠٠ .

ويذكر عبد اللطيف البغدادي في سيرته كيف تعلم ، والكتب التي تعلمها ، وشيوخه الذين تلقى عليهم العلم . ويسهب القول في رحلته ، وفيمن لقي من الشيوخ ، ويقول بعد أن وصف إقامته وتحصيله ببغداد : « ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ، ويملأ عيني ، ويحل ما يشكل علي ، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتي ، لكن وجدت الكمال ابن يونس جيداً في الرياضيات والفقه ، متطرفاً في باقي اجزاء الحكمة ، قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها ، حتى صار يستخف بكل ما عداها ، واجتمع اليَّ جماعة كثيرة وعرضت علي مناصب ، فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التي تحتها ، وأقمت بالموصل سنة في اشتغال دائم ليلاً ونهاراً ، وزعم أهل الموصل انهم لم يروا من أحد من قبلي ما رأوا مني ، من سعة المحفوظ ، وسرعة الخاطر ، وسكون الطائر ، وسمعت الناس يهرجون في حديث الشهاب السهروردي المتفلسف ، ويعتقدون انه قد فات الاولين والآخرين ، وان تصانيفه فوق تصانيف القدماء ، فهممت لقصده ، ثم ادركني التوفيق ، فطلبت من ابن يونس شيئاً من تصانيفه ، وكان أيضاً معتقداً فيها ، فوقعت على التلويحات واللمحة والمعارج ، فصادفت فيها ما يدل على جهل اهل الزمان ، ووجدت لي تعاليق كثيرة لا ارتضيها هي خير من كلام هذا الانوك ، وفي أثناء كلامه يثبت حروفاً مقطعة ، يوهم بها أمثاله انها أسرار الاهية . . .[1] » .

(١) ابن أبي أصيبعة ٢ : ٢٠٢ ـ ٢٠٤ .

وكل هذه السير ، على تفاوت أصحابها في إعجابهم بانفسهم ، وبما حققوه من مجد او غاية كانوا يسعون اليها ، تفيدنا كثيراً لانها تقرير مباشر عن تجاربهم في الحياة ، وعن جهادهم فيها ، فاذا لم تكن فيها المتعة الفنية ، ففيها المتعة التي يثيرها الخبر الطريف ، والتجربة الصادقة ، وهذا النوع من السير الاخبارية الصغيرة غير قليل في الادب العربي ، ولكننا نكتفي منه في هذا المجال بالامثلة السابقة .

(٢) صنف يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير ومن هذا النوع سيرة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، وسيرة ابن خلدون ، ومذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة ، وكل واحد من هؤلاء كانت تكتنفه ظروف مضطربة فيها مجال للأخذ والرد والقيل والقال ، فكتبوا سيرهم لينصفوا انفسهم امام التاريخ ، وليبرروا ما جرى لهم من زاوية ذاتية .

أما المؤيد فكان داعي دعاة الدولة الفاطمية وأحد أقطاب المذهب الاسماعيلي ، وهو معروف بالمراسلات التي دارت بينه وبين ابي العلاء المعري ، حول تحريم اللحوم والاكتفاء بالنباتات . وللمؤيد هذا شخصية لا تعرف للطموح حداً . فقد عاش في شيراز ، في خضم مائج من العواطف السنية المعادية . واستطاع ان يستميل الملك البويهي ، أبا كاليجار ، الى مذهبه الاسماعيلي . ثم يغادر فارس الى مصر ، مؤملاً ان يجد فيها الحظوة التي ترفعه الى اعلى الدرجات . غير ان مصر الفاطمية الغارقة حينئذ في الانحلال ، لم تعترف له بعبقريته ، فجاهد غير يائس في سبيل الدولة الفاطمية ، وتآمر على الدولة العباسية مع

البساسيري ، واستطاع ان يدعو للخليفة الفاطمي على منابر بغداد ، مدة من الزمن . فهذا الدور الذي لعبه المؤيد لم يكن يجد القلم الذي يوضحه ، ولا المؤرخ المنصف الذي يجلوه ، ولذلك أقبل هو نفسه على كتابة سيرته ، لينتصف من خصومه ، وليؤكد ما يراه حقاً وصواباً . وقد كانت حياته سلسلة من المغامرة والمصابرة ، ويبدو أنه لم يكن لبقاً في أصول الخطاب ، أو كان قليل المجاملة في طريقة التعبير ، وكان هذا نفسه مزلة في عصره ، يتعقبه فيها أعداؤه ويكيدون له بها ؛ خاطب مرة أبا كاليجار فقال له « ما ينجيني منك سخط ولا رضى ، فلقد كنت علي إلباً ، قبل المعرفة ، قاصداً لروحي بلا بصيرة ولا بينة ، وكان يتجافى جنبي عن المضجع رهبة من بغتاتك وخوفاً من سطواتك ، فلما سهل الله تعالى ، وأيقظك من رقدتك ، وجمع بيني وبينك ، ففعلت بك ما لم يفعله والدك - أعني من طريق الارشاد والأخذ به من الاختلال في دينه الى السداد - صرت لا اتخلص من أذى من هم حولك ، ونصبهم لي أشراك الغوائل ، ولقائهم أياي بالخدع والمخاتل.»[1] . وقد غضب الملك من قوله له : « فعلت بك ما لم يفعله بك والدك » ونقلها لاصحابه ، وهم أعداء المؤيد ، فهولوا فيها وقالوا له : هذه لفظة لا تقال للسلطان ، حتى اضطر المؤيد الى الاعتذار عنها .

ويصور حاله بعد ان لم يعد له حيلة في قمع المكايدين له فيقول : « ومضيت أجر رجلي الى بيتي ، وبت ليلة يا لها من

---

(١) السيرة المؤيدية : ٤٦ .

ليله ، وصارت بشيراز صيحة واحدة بحديثي وذكري في البيوت والمساجد والمجامع ، وتباشر المخالفون في كل بقعة وكل مكان ، ونفذت الكتب الى البلدان الشاسعة بالتهاني ، ان الملك رجع عما كان عليه من الضلالة ، وقتل فلاناً وجعله قطعة قطعة . . »[1] . ولم يبق أمام المؤيد الا الرحيل فعزم على قصد مصر ؛ قال : «وعملت على تنكير الزي والهيئة ، والدخول في اطمار رثة ، واستبعت غلامين مجهولين ، وسلكت في بعض المجاهل من الطرق ، أكتري من مرحلة الى مرحلة حماراً أركبه او جملاً او ثوراً على حسب ما يتفق ، واتحمل في خلال ذلك من مشقة المشي وخوض الأودية والوحول ، والصبر على مضض البرد والنزول على المواضع القذرة ، ما يكون الموت عند دائه شافياً »[2] . وقد ملأ المؤيد سيرته بالرسائل التي كتبها او تلقاها ، ولكنه ـ على أي حال ـ أراد أن لا يدع التاريخ يغفل فيه دوره ، وهو هام في رأيه ، وان يطلع الناس على حقائق ، لولاه لظلت مستورة الى الأبد . وأسلوبه في سيرته غير سهل ولا سائغ ، وهو يعتمد السجع الذي انكره على ابي العلاء ، في بعض رسائله .

وأما عبد الله أمير غرناطة فقد كان أحد امراء الطوائف ، وكانت أزمة الأندلس بين اطماع الاسبانيين بقيادة الفونش السادس من جهة ، والمرابطين من جهة أخرى ، تجعل موقفه حرجاً ،

---

(١) المصدر السابق : ٦٣ .

(٢) المصدر السابق : ٦٩ .

فكل عمل يقوم به يساء تفسيره : اذا حصن بلده قيل إنما يقاوم تقدم المرابطين ، واذا زوج اختيه من بعض أقاربه اتهم بأنه إنما يفعل ذلك لئلا يتزوج من إحداهما امير المرابطين ، واذا هاجم الفونش مدن الأندلس ، ولم يهاجم غرناطة ذهب المرجفون يقولون ان ذلك حدث بمؤامرة الأمير عبد الله نفسه ؛ كل هذا والامير يجد نفسه في مأزق ضيق ، والثورات في الداخل تتوالى عليه ، والكارهون يسيئون الى سمعته عند المرابطين وأميرهم ؛ وأهل بلده يداخلون الأمير على التسليم سراً . ولمواجهة هذه الاتهامات الكثيرة ، كان لا بد للأمير عبد الله من أن يقص القصة كما يعرفها مخلصاً ، بعيداً عن التزيد ، موضحاً ما تلبَّس بسيرته من إشاعات ، نثرها المغرضون وأهل الاهواء ، فهو يقول في موضع من كتابه : « ولم نعتقد في أمر المرابطين ـ يعلم الله ذلك ـ صدَّهم عن جهاد ، ولا تضافراً مع أحد عليهم ، ولا اردت بهم شيئاً من مساءة نسبت الينا ، أكثر من أني جزعت الجزع الشديد مما تقدم ذكره من تلك المعاني التي أبصرتها ، وما جرى على ابن رشيق ، مع هلعي لذلك وتمكن السوداء مني ، وسوء الظن مع معاينة اليقين فقلت : ما دام تلتقي الفئتان ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة ، فتحصينها أولى ، ولن يضر ذلك . فمتى دعاني امير المسلمين الى إعطاء عسكر او مال او ما أشبه ذلك ، مما يجب من مشاركته وإنجاده ، لم نتأخر عنه . . . غير أني متى دعاني الى الخروج اليه بنفسي ، نعتذر وندافع ذلك جهدي ، فعسى أن يتركني ويقبل عذري ، ومتى لم يقبل لي عذراً ، نعلم انه يريد إخراج أمري الى حدود الفعل ، فهو اذن عليَّ متعسف ، لكلام الاعداء والكذب ، فلا بد لي عند ذلك من

الاحتياط على مهجتي والتحصين على نفسي ، ونجعله اذ ذاك كسائر من يريد إخراجي من السلاطين ، ولي معه الله ، إذ لم انوِ به سوءاً ، ولا واسيت عليه أحداً ، ولا صددته عن جهاده »[1] . وهكذا يظل الامير عبد الله يشرح موقفه موضحاً ، حتى لا تتعلق به تهمة ؛ ولكن الوشاة أفسدوا الجوَّ عليه ، وعلق في مخالب رجل قوي . فهو في جانب من سيرته يصور ما حل به بطريقة تستثير العطف والرثاء ؛ وخاصة حين استقصيت امواله عن آخرها ، وأصبح لا يملك من الدنيا شيئاً ، وهدد بأنه مطالب هو وأمه ، باستخراج كل وديعة لهما عند الناس والا فلا عهد له عند المرابطين قال يصف حاله حينئذٍ : « ورجعت الى الوالدة أعظها واقول لها : أسألك بالله إلا ما أشفقت علي فربما قد اخرجتن شيئاً [من المال] لا أعلمه فيظهر بعدي ، ويكون فيه هلاكي وهلاكك ، والدنيا أقل من هذا كله ، والقوم كما ترين متعلقون بشعرة ، يطلقون معنا ارقَّ سبب ، فاياك ان تشمتي بي ، واذا تبرأنا له ، لا يمكن له تضييعنا ، وليس يدخر المال إلا لثلاث : سلطان يجور ، او فتنة تدوم ، او عمر يطول ، ونحن في نفر يسير . فلما سمعت ذلك ، بكت وقالت : نخشى أن نبقى فقراء والموت اهون من الفقر ؛ فسهلت عليها الأمر وقلت : إن الله لا يضيع من خلق »[2] . وبين دفع الاتهام واثارة العطف وتحقيق المسؤولية على وجهها الصحيح ، مضى الأمير عبد الله يؤرخ الأحداث التي كان هو محورها ، والحق ان الظروف كانت أقوى

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله : ١٢١ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله : ١٥٨ .

بكثير من ان تدفعها او تحولها شخصية ذلك الامير ، فانه كان امرءاً يستسلم للحوادث ، ويحب البقاء ، معتقداً ان لكل شيء مدة ؛ حتى قال فيه أحد المؤرخين يصفه : « كان جباناً مغمد السيف ، قلقاً لا يثبت على الظهر ، عزهاة لا أرب له في النساء ، هيابة مفرط الجزع ، يخلد الى الراحات ويستوزر الاغمار »[1] ومن أجل التاريخ الذي لا يرحم ، أراد الأمير عبد الله ان يستثير الرحمة والانصاف لنفسه بكتابة سيرته .

ولم تكن الأحداث التي عاش ابن خلدون في غمارها أقل تشابكاً واضطراباً ، فكتب سيرته ، وضمنها ذكر شيوخه ، والكتب التي درسها ، والرسائل التي كتبها ، والاشعار التي نظمها في المناسبات . ولكن وراء كل ذلك غاية من التبرير والتفسير ؛ فقد اتهم ابن خلدون بأنه شارك في بعض الانقلابات ، ولما كان في الأندلس ، اخذ يتنكر له الناس حتى صديقه لسان الدين ابن الخطيب ، ولما كان في مصر ولي القضاء وعزل عنه عدة مرات حتى ليظن الناظر الى هذا التقلب في حياته ، ان العيب في شخصه لا فيمن حوله ؛ فكتب سيرته منتصفاً لنفسه ، وأبان عن وجه الحقيقة كما كان يراه ، ولم تخل سيرته من غرض آخر ، هو تصوير تلك الشهرة العريضة ، والمنزلة الرفيعة التي نالها في الحياة السياسية والاجتماعية ، حتى كان من ثقته بنفسه أن سعى لمقابلة تيمورلنك (السلطان تمر ـ كما يسميه ـ) ، بل ان هذا السلطان نفسه سأل عنه ورغب في لقائه ، قال : «وأخبرني

---

(١) المصدر السابق : الملحق الثاني : ٢٠٨ .

القاضي برهان الدين انه سأله عني ، وهل سافرت مع عساكر مصر ، أو أقمت بالمدينة فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت ، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج اليه ، فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة الى القول ، وبلغني الخبر من جوف الليل ، فخشيت البادرة على نفسي ، وبكرت سحراً الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج او التدلي من السور ، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر ، فأبوا علي أولاً ثم أصغوا لي ، ودلوني من السور ، فوجدت بطانته عند الباب . . . »[1] وموقف ابن خلدون في لقاء تيمورلنك ، من أدل المواقف على نفسيته في عهد الشيخوخة ، وحرصه على السلامة ، وهو يرسم مفارقة واضحة لروحه المغامرة ولصلابته قبل ذلك ، في أيام القضاء ، وتمسكه التام بما يعتقد انه العدل والحق ، دون ان تأخذه فيه لومة لائم . وقد وصف ذلك أبلغ وصف جاء فيه « فصدعت في ذلك بالحق ، وكبحت اعنة اهل الهوى والجهل ، ورددتهم على أعقابهم ، وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك ، لا ينتمون الى شيخ مشهور ، ولا يعرف لهم كتاب في فن ، قد اتخذوا الناس هزؤا ، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض ، ومأبنة للحرم ، فأرغمهم ذلك مني ، وملأهم حسداً وحقداً عليَّ ، وخلوا الى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة ، يشترون بها الجاه ، ليجيروا به على الله ؛

---

(١) التعريف بابن خلدون : ٣٦٨ .

وربما اضطر اهل الحقوق الى تحكيمهم ، فيحكمون بما يلقي الشيطان على ألسنتهم ، يترخصون به للاصلاح ، ولا يزعهم الدين عن التعرض لأحكام الله بالجهل ، فقطعت الحبل في أيديهم ، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه ، فلم يغنوا عنه من الله شيئاً ، وأصبحت زواياهم مهجورة ، وبئرهم التي يمتاحون منها معطلة ، وانطلقوا يراطنون السفهاء في النيل من عرضي ، وسوء الاحدوثة عني ، بمختلق الإفك وقول الزور ، يبثونه في الناس ، ويدسون الى السلطان التظلم مني ، فلا يصغي اليهم ، وأنا فى ذلك محتسب عند الله ما منيت به من هذا الأمر ، ومعرض فيه عن الجاهلين ، وماض على سبيلٍ سواءٍ من الصرامة ، وقوة الشكيمة ، وتحري المعدلة ، وخلاص الحقوق ، والتنكب عن خطة الباطل متى دعيت اليها ، وصلابة العود عن الجاه والاغراض متى غمزني لامسها ، ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة ، فنكروه علي ، ودعوني الى تبعهم ، فيما يصطلحون عليه من مرضاة الاكابر ، ومراعاة الأعيان ، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة او دفع الخصوم إذا تعذرت ، بناءً على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره ، وهم يعلمون أن قد تمالأوا عليه . . . فأبيت في ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها ، والوفاء لها ولمن قلدنيها ، فأصبح الجميع علي إلباً ، ولمن ينادي بالتأفف مني عوناً ، وفي النكير علي أُمة . . . . »[1] .

(١) التعريف بابن خلدون : ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(٣) وصنف ثالث ، يصور الصراع الروحي ، وهو ملموح في سيرة ابن الهيثم ، وفي بعض ما كتبه المحاسبي في « كتاب النصائح[١] » وواضح في « المنقذ من الضلال » للغزالي . وليس هذا الكتاب سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق . لأنه لا يصور إلا جانباً من أزمة روحية ، تعرض لها الغزالي ، دون نظر الى ما عداها ؛ ولكنه رسم هذه الازمة بدقة فقال : « ولم أزل في عنفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ قبل العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب ان اطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد ان اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً الا واحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً الا واتجسس وراءه ، للتنبه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبي وديدني ، من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد من الصبا . »[٢] .

---

(١) انظر المنقذ من الضلال (المقدمة) : ٣٣ وما بعدها .

(٢) المنقذ من الضلال : ٥١ .

والغزالي صريح في تفسير حالة الشك التي وقع فيها ؛ ولكن لا بد أن نذكر انها صراحة لم تكن ضارة بسمعته بين الناس حينئذ ، على عكس صراحة ابن الهيثم ، ذلك لأن الغزالي خرج من لجة الاضطراب الى ساحل التصوف المطمئن ، وانتقل من الشك العقلي الى الايمان التسليمي ، وهو يقول في وصف حالته النفسية حين أقبل على التصوف : « فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ،وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ اقفل الله على لساني حتى اعتقل من التدريس ، فكنت اجاهد نفسي ان أدِّرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلي[1] ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب،بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدى الى ضعف القوى حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج، فلا سبيل اليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم. ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له . فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهّل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاولاد والاصحاب »[2] .

(٤) : صنف يقص قصة المغامرات في الحياة ، وما يلاقيه

---

(١) اي الطلبة الذين يدرسون عليه .

(٢) المنقذ من الضلال : ٩٠ - ٩١ .

المرء من تجارب ، وليس لدينا من هذا الصنف سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق ، ولكن من أقرب النماذج اليها ، مذكرات أسامة بن منقذ التي سماها « كتاب الاعتبار » ، ففيه يتحدث أسامة عن حياة حافلة بالتجارب والمشاهدات والمغامرات ، في أسلوب بسيط ينقل الحوار باللغة الدارجة في ذلك العصر ، ولا يبرز الكتاب قوة الصراع من الناحية الفكرية ، إلا انه يحاول ان يستخرج العبرة من الاحداث نفسها ؛ واكبر قاعدة فلسفية فيه أن الانسان لو طوح بنفسه على الموت لما تيسر له أن يموت ، قبل ان يحل أجله . ولكنه في جملته يصور حياة أسامة في نشأته واختباراته الحربية ، وشجاعته في محاربة الانسان والحيوان ، وفيه دراسة لبعض الطبائع والنفسيات ، بين الرجال والنساء من المسلمين والصليبيين. ولا أعرف لهذا الكتاب ضريباً في نوع المتعة التي ينقلها الى القارىء ، وفي البساطة المتناهية التي يتلقاه بها ؛ مع عدم اعتداد بالنفس أو تبجح بها ، حيث لا يستنكر الاعتداد والتبجح ؛ ومن أصدق الانطباعات عنه قول الدكتور حتي في المقدمة : « وفي مجمل معاملاته مع اصدقائه واخصامه يدهشنا هذا الرجل بميله للنصفة والعدالة »[1] ؛ فهو نموذج للانسان الحديث الذي نحب ان نراه كاملاً في روحه الرياضية ، وايجابيته ، واحترامه للمرأة ، ومشاعره الانسانية ، وفي ترفعه عن ان يلوث يديه بما ينقص من عزته النفسية وكرامته . وليس من السهل ان يصح للقارىء انطباع صادق عن الكتاب باقتباس او اثنين منه ، لأن حكاياته الصغيرة كلها مجتمعة هي

---

(١) الاعتبار ، المقدمة : ش .

التي ترسم انطباعاً كاملاً ؛ ولكن لا اخلي هذا المكان من بعض النماذج المتصلة باسامة نفسه : فمن ذلك تصويره للطريقة التربوية التي نشأ عليها : « وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى فيَّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لي . . . ومرة كنت معه ، رحمه الله ، وهو واقف في قاعة داره ، وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التي في الدار ، فوقف يبصرها ، فحملت سلماً كان في جانب الدار اسندته تحت الحية ، وصعدت اليها وهو يراني فلا ينهاني ، وأخرجت سكيناً صغيراً من وسطي ، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة ، وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحز رأسها ، وخرجت التفّت على يدي ، الى ان قطعت رأسها ، وألقيتها ، الى الدار ، وهي ميتة »[1] .

ومثل آخر يصور العلاقة بينه وبين الصليبيين: « كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم افرنجي ، قد وصل من بلادهم يحج ويعود ، فأنس بي ، وصار ملازمي يدعوني «أخي» وبيننا المودة والمعاشرة . فلما عزم على التوجه في البحر الى بلاده قال لي : يا اخي ، انا سائر الى بلادي ، وأريدك تنفذ معي ابنك (وكان ابني معي وهو ابن اربع عشرة سنة) الى بلادي يبصر الفرسان ، ويتعلم العقل والفروسية ، واذا رجع كان مثل رجل عاقل . فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فان ابني لو أسر ، ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه الى بلاد الافرنج ، فقلت : وحياتك هذا الذي كان في نفسي ، لكن منعني من ذلك ان جدته تحبه ، وما تركته يخرج معي حتى استحلفتني اني ارده

(١) الاعتبار : ١٠٣ .

اليهـا ، قـال : وأمـك تعيش؟ قلت : نعـم . قـال : لا تخالفها . »[1] .

وهناك سير ذاتية اخرى بعضها إخباري محض أورد ياقوت منها في معجمه نماذج كثيرة . ولحنين بن اسحاق رسالة تحدث فيها عما اصابه من المحن ، وقد ذكرها ابن ابي اصيبعة في ترجمة حنين ، ولكن الاستاذ روزنتال يرى انها منحولة . وللرازي سيرة سماها « السيرة الفلسفية » ، ولعمارة اليمني سيرة فيما سماه « النكت العصرية » أما سيرة لسان الدين بن الخطيب التي صور فيها دوره في الحياة السياسية والأدبية فأنها لا تزال مخطوطة ، وهناك سير ذاتية اخرى ذكرها الاستاذ روزنتال[2] وسير أخرى ذكرها السخاوي في « الدرر » ، ولا نعرف عنها وعن مصيرها شيئاً .

ولعل أول سيرة ذاتية ظهرت في العصر الحديث هي « كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق » للشيـخ أحمد فـارس الشدياق ، وفيها حديث عن تنقلات الشدياق وبعض أحواله ، ولكن هـذا كله غارق في غمـار الاستـطرادات والمتـرادفـات اللغوية ، وفي السخرية والمجون ، وهما من ابـرز خصائص الكتـاب ، ومما يميـز الشديـاق رحابـة صدره لتلقي المـدنية الحديثة ، ونظرته الى المرأة ، وسخريته برجال الدين ، ونقده لبعض العادات عند الغربيين والشرقيين على السـواء ، ولكن

---

(١) الاعتبار : ١٣٢ .

(٢) انظر خلاصة مقاله في كتاب الموت والعبقرية : ٥٠ ـ ٥٦ .

غرامه باللغة ، وانقياده لطبيعة المقامة ، واسرافه في التورية والتلميحات الجنسية ، كل هذه تفسد عليه الاسترسال ، وتعرقل المتعة في السرد . ومن باب المبالغة المسرفة قول مارون عبود في هذا الكتاب : « لم يكتب مثله شرقي كما يقصر عنه الكثيرون من نوابغ الغرب فأيام طه حسين ، وكتاب الفونس دوديه مثلاً ـ أُلهية بالقياس اليه ، وربما كان بينه وبين اعترافات روسو بعض القرابة الدموية[1] » حقاً ان الشدياق كان سابقاً لأوانه في نفاذ نظرته ، مشرفاً كالعملاق الساخر على عيوب عصره ، متحدياً بالقدرة اللغوية اليازجي ومن نسج اليازجي على منوالهم ، كل هذا موطن للاعجاب ، ولكن حين نضع كتابه الى جانب الايام ، واعترافات روسو ، فاننا نفترض انه سيرة ذاتية مكتملة ، وفي هذا إسراف في التقدير ، لأن الجوانب الخيالية ، والمشاهد المصنوعة فيه تربو بكثير على الأمور الواقعية ، كما ان الاستطراد في اللغة والنقد والسخرية والحوار المصنوع ، كل هذه تخرجه عن ان يكون سيرة ذاتية بالمعنى الفني .

ولذلك ارى ان « للأيام » في السير الذاتية الحديثة مكانة لا تتطاول اليها أي سيرة ذاتية أخرى ، في ادبنا العربي ، وخاصة في الجزء الأول منه ، لمزايا كثيرة منها : تلك الطريقة البارعة في القصِّ ، والاسلوب الجميل ، والعاطفة الكامنة في ثناياه المستعلنة أحياناً حتى تطغى على السطح ؛ وتلك اللمسات الفنية في رسم بعض الصور الكاملة للأشخاص ، والقدرة على السخرية اللاذعة في ثوب جادّ حتى تظهر وكأنها غير مقصودة .

---

(١) المكشوف : ع ١٧٠ : ٢ .

وكتاب « الايام » صورة واعية للصراع بين الانسان وبيئته ، وكاتبه يعمد عمداً الى تصوير ذلك الصراع ، ولا يدعه ليستنتج من طبيعة السيرة نفسها ؛ فهو يصف مراحله ويتدرج بها ، معتمداً على ان حياته خير مثل للانتصار على البيئة ، « والوصول » في النهاية ، ولكن طبيعة الثورة عنده ليست قوية ، ولا هي مما يؤكد صبغة النصر النهائي ، وربما أضافت الحلقات التالية من الايام قوة الى هذه الحقيقة ، وجعلتنا نحسُّ بمعنى التحرر من قبضة البيئة والظروف احساساً عميقاً ، أما الآن فأقوى صور الثورة الايجابية في الكتاب وقفة الصبي من والده ، وتهكمه بقراءة « دلائل الخيرات » ، وسخريته ممن يلجأون الى الاولياء ، ثم تلك الغضبة التي أعلنها الطالب على أستاذه فقال له : « ان طول اللسان لا يمحو حقاً ولا يثبت باطلا » ، ووقفته التي أدت الى الصدام السافر بينه وبين الازهر حينما كان يدرس على الشيخ سيد علي المرصفي ، فنواة الثورة كما ترى موجودة ، ولكنها في جانبها الايجابي لا تزال اضعف منها في الجانب السلبي ، وتتجمع العاصفة في نفس الصبي عن طريق الصدمات التي يتلقاها من الناس ومن المجتمع ، بطريقة سلبية ، فهو قد حرص على عرض تلك المواقف التي جرح فيها احساسه وأهينت كرامته ، فصمت عجزاً ، ومضى يختزن المرارة مع الأيام الى ان تتحول المرارة الى نقمة بالغة ، ليمهد للانفجار الذي نتصوره في حلقة اخرى من حياته لم يقصَّها بعد . ثم هو من جهة أخرى يمهِّد لاحقاق الانتصار الذاتي الذي أحرزه ، بتصوير الاخفاق الذي كان من نصيب الشخصيات الأخرى ، فأكثر الشخصيات التي يرسمها من ذلك الفريق الذي ينقطع قبل نهاية الشوط ، لا

لسوء الظروف فحسب ، بل للعجز الطبيعي عن بلوغ الغاية .

وقد تدرج الكاتب تدرجاً قوياً ساطعاً مع نمو سوء الظن في نفسه ، وارتيابه فيما يدعيه الناس من حق وصدق وتدين ، لانه ركز اهتمامه في نقل صورة مريرة من النفاق والكذب ، وخاصة في البيئة الدينية ، وكان من ثمرة هذا التصوير اقتراب النفس التي عانت حفظ القرآن سنوات طوالاً فلم تحفظه ، - اقترابها من حومة العقل ، وابتعادها عن روح التدين بمعناه الذي وجده في الحياة الواقعية ، لان ذلك النوع من التدين في تلك البيئة ، لم يغرس شيئاً من الفضيلة لا في نفوس اصحاب الطرق ، ولا شيوخ الريف ولا « سيدنا » ، ولا طلبة العلم ، ولا أساتذته ، ولم يعلّم هؤلاء الناس مرة واحدة معنى الرفق ، ولم يعمق في نفوسهم مشاعر إنسانية كبيرة بحيث يستنكف أكبرهم عمامة وأوسعهم قفطاناً من أن يقول له : « يا أعمى !! » . . وتحوله الى العقل مشوب بالعاطفة ، وسيظل هذان العنصران غير منفصلين في نظرته الى الناس والأشياء : وقد أحب الكاتب الريف أكثر مما أحب بيئة الربع والازهر ، فكان في تصويره للأول ، وسخريته بما فيه ، ورسم صورة « سيدنا » ، أقدر منه على رسم الثاني ، ومن العجيب ان تعمق السخرية حيث يعمق الحب ، ولكنه في الجزء الثاني صرف جهداً كثيراً في رسم الشخصيات التي عرفها في الربع ، فكانت الوحدة المستقطبة حول الذات في الجزء الأول اوضح منها في الثاني ؛ وعلى الرغم من بعض المواقف العاطفية في الكتاب ، فان طبيعة الانسياب فيه ، وسرده في ضمير الغائب ، قد حققا شيئاً من التجرد في الحكم . وباستعمال ضمير

الغائب ، بريء من مظنة العجب والدعوى والتمجد بالنفس وغير ذلك من الصفات التي يوحي بها ضمير المتكلم . ومما قلّل من صراحته إخفاؤه الاسماء ، ـ أسماء الاماكن والناس ـ فأضعف القيمة المكانية وشيئاً من القيمة التاريخية في قصة حياته ، وأبدى أنه لا يستطيع الجهر بأشياء كثيرة ، لأن نفسه منذ الصغر طبعت على الاستحياء والتواري ، وانجذبت الى الرزانة وشدة التحرج : « كان قليل الأكل لا لأنه كان قليل الميل الى الطعام ، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشره او ان يتغامز عليه إخوته . . . . . وكان يستحي ان يشرب على المائدة ، مخافة ان يضطرب القدح من يده ، أو الا يحسن تناوله حين يقدم اليه »[1] ، وله في هذه النشأة عذر جليّ ، ولكن هذا لا يعفيه من أمر القوة في الصراحة ؛ كما أن ذاكرته متحيزة ، لأن طبيعته الحزينة جعلته يذكر كل ما كان ينمي عنده سوء الظن والنقمة ، على مر الايام . غير ان هذا التحيز في التذكر أو التحيز في الاعتراف ، ليس غلواً إذا قسناه بما في « ذكريات الطفولة » لابراهيم عبد الحليم من تحيز مسرفٍ ، فهنا نجد ان ذاكرة الطفل لا تعي إلا جانب الفساد في الناس ، من أغنياء وفقراء ، ورجال ونساء ، وصغار وكبار ، حكوميين ومدنيين ، ومع كل هذا الظلام المحيط بعهد الطفولة يريدنا الكاتب ان نؤمن بالمعجزة فنخرج من هذا الجو القاتم الى الايمان بالانسان ، دون ان تكون لهذا الايمان أسبابه ومقدماته ، يريدنا ان نثور على فلسفة الصبر والقناعة كما ثار ، وهو قد جعل

---

(١) الأيام ١ : ٢٣ .

من صلابة الأم ومن صبر الأخت خير ثمرة للصبر والقناعة . ولا شك ان « ذكريات الطفولة » أحفل بالصراحة من كتاب « الايام » ، ولكن يعوزه ما للأيام من قوة في البناء والنمو في الشخصية .

وقد تأثر الاستاذ أحمد أمين بكتاب الايام حين كتب سيرته في كتاب أسماه « حياتي » ، وليس سبب هذا التأثر ما أحرزه كتاب الايام من شهرة أدبية فحسب ، بل هو في تلك النشأة الازهرية المشابهة لنشأة صاحب الايام ، وفي العلاقة بين الاديبين ؛ ففي « حياتي » يصف أحمد أمين صورة أزهرية أخرى ، ويقف عند بعض العناصر التي وقف عندها طه حسين ، ولكن إسهاب طه في تحليل شخصيات الطلبة بالربع ، والاساتذة في حلقات الدرس ، صرف أحمد أمين عن الاستقصاء في هذه الناحية ، وجعله يتجه الى وصف الشخصيات التي عرفها في الحي ، ويحاول أن يرسم لها صوراً متنوعة ، كالتي رسمها زميله وصديقه من قبل . وكما أطنب طه في وصف فقده لأخيه ، وتأثره العميق لفقده ، عرَّج أحمد أمين على حادثة مشابهة ، فوصفها بتأثر شديد ، وربما كان هذا من قبيل المصادفة والاتفاق . وانفرد صاحب « حياتي » بالاطناب في الحديث عن الشخصيات التي أثرت في نفسه حتى اكتملت له شخصية « الفتى المثقف » ، فجمع الى صورة أبيه ـ في هذه الناحية ـ صور كبار الأساتذة وخاصة سيدتين انجليزيتين ، كان لكل واحدة منهما أثر في نفسيته وشخصيته ، وكما مضى الدكتور طه يصف الصدمات التي كانت تدفع به الى الثورة ، مضى أحمد أمين يصف الخطوات الايجابية التي أدت به الى الوصول ، وغايته ان يصف كيف

وصل : « وكنت وصرت ، وكنت وصرت ، مما يطول شرحه ، فما أكثر ما يفعل الزمان »[1] . وادراكه لهذا الفرق بين « كان » و « صار » هو الذي دفعه بقوة لكتابة سيرته الذاتية .

ومن يقرأ سيرة أحمد أمين يجد أن الكاتب يتصور نتيجة التغير ، وينص عليها ، دون أن يجعل من احداث حياته ما يفسر هذا التغير فهو أشبه بمن يقول لك « هكذا جرت الأقدار » أما من يقرأ « الايام » فيجد فيه ان كاتبه كتبه وهو يريد أن يقرن بين الوصول والثورة ، فأحمد أمين يمثل دور المستفيد الذي يسمع ويقرأ ويلتقي الناس ، وتتكيف حياته من نفسها دون دوافع ذاتية قوية ، أما طه فيصطدم بالناس ، ويقلق وينزعج ويسوء ظنه فيهم . وهو يحس ان كل المنغصات الخارجية ترسب في ذاكرته ، فتظل تبتعد به عنهم ، وتحفزه الى الهجوم عليهم حين تحين الفرصة .

ثم هنالك ذلك البون البعيد بين الكتابين في طريقة القص ، فأحمد أمين تقريري يميل الى ذكر الحقيقة ، كما هي ، وطه يميل الى تصويرها كما أحسها ذات يوم ، ولذلك جاء كتاب « حياتي » مرحلة وسطى بين الايام وبين « تربية سلامه موسى » ، وخصوصاً حين أدرج فيه صاحبه مذكرات كتبها عن مقامه بمنطقة البحيرات ، وعن رحلته الى سورية واستانبول وأوروبة ، مما جعل الحديث عن فترات الحياة غير متناسب .

وكتاب « حياتي » يصور فترة أطول من التي تصدى لها

---

(١) حياتي : ٣٤٤ .

الدكتور طه في جزأين من « الايام » ، وصاحبه يحاول ان يصف ما أداه في عالم الحياة العملية والعلمية . وصلته بالحياة العملية تبدأ في دور مبكر جداً ، فكأن ما يوازي عهد الطفولة وعهد التلمذة ـ وهما موضوعا كتاب «الايام » ـ ليس الا جزءاً صغيراً في الكتاب ، ومن ثم افترقا في طبيعة ما يقصانه ، فصاحب « الايام » يصور نموه النفسي الداخلي وصاحب « حياتي » يصور علاقاته الخارجية بالناس والأماكن . وبينما تستطيع ان تبني من كل « الايام » صورة لشخصية كاتبه ، تجد أن احمد أمين رسم صورته وطبيعته في بضع صفحات[1] . وهذا الفرق أيضاً يطغى على الاسلوب الأدبي ، فأسلوب طه حسين موسيقي مرنم ، تصويري ، كثير التكرار ، باعث على الاسترخاء ، وأسلوب أحمد أمين بسيط هادىء إخباري . والحقيقة أن أحمد أمين قد عاد بالسيرة الذاتية الى التاريخ ، وابتعد عن الناحية الفنية ، التي تجعل من السير الذاتية ينبوعاً يتدفق من النفس ، ويفيض على ما حولها. على انا لا ننكر ان الصراحة توفرت في « حياتي » على وجه قريب لا استعلاء فيه ، وان الالتفات الى الدقائق الصغيرة ، وإن ملأ الكتاب بالعادي المبتذل من الاخبار ، فقد كان في كثير من الاحيان مفيداً ، ومن نظر الى الكتاب بعين الانصاف فانه يكبر صراحة رجلٍ يقول :

« لكم تمسكت في شبابي بالمبدأ وإن ضرني ، واستقلت من عمل يدر علي الربح لأني رأيته يمس كرامتي ، وبنيت آمالاً

---

(١) انظر حياتي ص ٣٣٠ ـ ٣٣٦ .

واسعة على ما أستطيعه من إصلاح وما أحققه من اعمال ثم رأيت كثيراً من هذه الآمال يتبخر ، وما أنوي من أعمال يتعثر ، وها أنا ذا في شيخوختي قد أقبل ما كنت أرفض ، وقد أتنازل عن بعض المبادىء التي كنت ألتزم »[1] .

وقد أملى أحمد أمين أكثر كتابه من الذاكرة ، ففوت عليه تراخي الزمن بعض الأمور ، وأعتقد كما قلت في غير هذا المكان[2] ، « أن الكتاب تأخر قليلاً عن أوانه ـ تأخر حتى أصبح الاستاذ أحمد أمين يعاني المرارة التي يخلقها المرض والشعور بتغير الناس وتنكر الأهل والابناء والاصدقاء » .

وقد استطاع أن يحتفظ للكتاب بروح التواضع التي كانت من أظهر خصائصه الخلقية ، إلا أن اتصال حياته بكثير من الاحياء جعله أيضاً يتغاضى عن بعض ما يسيء اليهم ، ويحذف ما لا تطاوعه نفسه على إثباته ، من ذلك مثلاً انه تحدث عن وقفته الى جانب الاستاذ أمين الخولي ، حين كانا زميلين بمدرسة القضاء ، ولكنه اغفل الحديث عن نهاية ما كان بينهما من علاقة حين أصبحا معاً في الجامعة ، وحين تعرض لذكر العلاقة بينه وبين الدكتور طه حسين ، حاول ان يجد للخلاف الأخير بينهما أساساً نفسياً وفكرياً ، وأعرض عن تفصيل الأمور التي جرَّت الى ذلك الخلاف . ولكني اعتقد ان بساطته قد ساعدته على التجرد في النظرة ، والانصاف في الحكم ، وهذا شيء عسير لا يمكن ان يبلغ الانسان فيه حد الكمال .

---

(١) حياتي : ٣٤٥ .

(٢) انظر الابحاث ، السنة ٨ كانون الأول ١٩٥٥ (ص ٤٩٥) .

ولست أُعنى بهذين الكتابين لأنهما كل ما كتب في أدبنا المعاصر من سير ذاتية . وانما أعرض بهما اتجاهين متفاوتين ، فكتاب « حياتي » ذو صلة بالتاريخ والمذكرات ، وهو يقف في صف مع مذكرات محمد كرد علي ومذكرات الرافعي ومحمد شفيق باشا ، ومذكرات الملك عبد الله ، ومحمد حسين هيكل ! وتربية سلامه موسى وما أشبه ، إلا ان العنصر الذاتي فيه أقوى وأوضح .

وكتاب « الأيام » سيرة ذاتية فنية ادبية ، اذا تحولت عناصره بعض التحول ، أصبح قصة كما فعل توفيق الحكيم في « عودة الروح » والمازني في « ابراهيم الكاتب » والعقاد في قصة « سارة » ، ففي هذه الكتب شيء غير قليل من العناصر الذاتية والترجمة الشخصية ، غير انه موضوع في اناء قصصي ، ممزوج بقسط غير قليل من الخيال ، فهي كتب لاحقة بالقصص لا بالسير الذاتية ، وفي هذا الموقف المتوسط بين طرفين يظل كتاب « الايام » أكمل ترجمة ذاتية أدبية في أدبنا الحديث ، مثلما كان كتاب « جبران » لنعيمه أكمل سيرة أدبية .

١ ـ المصادر العربية والمترجمة

ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ط. البهية ١٨٨٢ (ترجمة حنين ابن اسحاق وابن الهيثم وابن سينا وعبد اللطيف البغدادي وابن رضوان) .

ابن بلقين ، عبد الله : مذكرات الأمير عبد الله ، تحقيق بروفنسال ، ط. دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥ .

ابن حزم ، الأمام أبو محمد : طوق الحمامة في الألفة والألآف ط. القاهرة ١٩٥٠ .

ابن خلدون ،عبد الرحمن : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، ط. اللجنة ١٩٥١ .

ابن شداد ، بهاء الدين : المحاسن اليوسفية (سيرة السلطان صلاح الدين) ط. مصر.
ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ط. أحمد عبيد بدمشق .
ابن منقذ ، أسامة : الاعتبار ، تحقيق الدكتور فيليب حتي ط. برنستون .
ابن هشام ، أبو محمد : السيرة النبوية ٤ أجزاء ، ط. الحلبي بمصر ، ١٩٣٦ .
اتسفايج ، ستيفن : دوستويفسكي ، ترجمة فريد انطونيوس ، دار ابن المقفع بدمشق ، ١٩٥٥ .
أدهم ، علي : منصور الأندلس . ط. الحلبي .
أمين ، الدكتور أحمد : حياتي ، مطبعة لجنة التأليف ١٩٥٠ .
البلوي ، أبو محمد : سيرة احمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ط. أحمد عبيد بدمشق .
حسين ، الدكتور طه : الأيام - جزءان - ط . دار المعارف ١٩٥٢ .
الحكيم ، توفيق : عودة الروح ، جزءان ط. مكتبة الآداب بمصر .
ستراتشي ، ليتون : الملكة فكتوريا ، ترجمة وديع الضبع ط. دار المعارف ١٩٥١ .
سلامه موسى : تربية سلامه موسى ، الكاتب المصري ١٩٤٧ .

الشدياق ، أحمد فارس : الساق على الساق ، نشر مكتبة العرب بمصر ١٩١٩ .

ضعون ، توفيق فضل الله : سيرة حياتي ، سان باولو ، البرازيل ١٩٣٢ .

عبد الحليم ، ابراهيم : ذكريات الطفولة ، دار الفكر ١٩٥٦ .

العريان ، محمد سعيد : حياة الرافعي ، ط. الاستقامة ١٩٤٧ .

العقاد ، عباس محمود : عبقرية محمد ، ط. الاستقامة ١٩٤٢ .
عبقرية عمر ، ط. الاستقامة ١٩٤٢
معاوية في الميزان ، كتاب الهلال ١٩٥٦ .
سعد زغلول ، ط. حجازي ١٩٤٦ .

الغزالي ، أبو حامد : المنقذ من الضلال ، تحقيق عبد الحليم محمود . مكتبة الانجلو ١٩٥٢ .

كرد علي ، محمد : المذكرات ، ٤ أجزاء ط. عبيد بدمشق .

لدفيج ، اميل : كليوبترة ، ترجمة عادل زعيتر ط. دار المعارف .

لدفيج ، اميل : نابليون ، ترجمة محمود الدسوقي ، دار الكاتب المصري .

المؤيد ، هبة الله الشيرازي : سيرة المؤيد ، دار الكاتب المصري ١٩٤٩

المازني ، ابراهيم عبد القادر : ابراهيم الكاتب ، لجنة النشر للجامعيين .
موروا ، أندريه : بيرون ، ترجمة بهيج شعبان ط . دار بيروت .
موروا ، أندريه : جورج ، صاند ترجمة بهيج شعبان ط . دار بيروت .
النسوي ، محمد بن أحمد : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ط . دار الفكر العربي .
نعيمة ، ميخائيل : جبران خليل جبران ، مكتبة صادر ١٩٥١ .

٢ ـ المصادر الافرنجية

St. Augustine : Confessions.

Blunden, E. : Shelley, a Life Story. (Lond. 1946).

Boswell, J. : The Life of S. Johnson (Every man's 1941).

Gibbon, E. : Autobiography (Every man's 1939).

Gide, A. : The Journals (4 vols. Standard ed.).

Gosse, E. : Father and Son (Book lover's ed. 1948).

Highet G. : People, Places and Books (Oxf. University Press, 1953).

Maurois, A. : Ariel (1924).

Mill, J. S. : Autobiography (New York, H. Holt and Co.).

he :	Ecce Homo (in the Words of F. Nietzche, New York 1931).
eau, J. :	The Confessions, 2 vols. Everyman's.
ey, L. :	Queen Victoria (1949).
y, L. :	My Confession. (New York, 1887).
r, G. :	Baesar (1952).
, S. :	Tolstoy (The Living Thought Library, 1948).

٣ ـ المراجع العربية والمترجمة

ابن حزم : رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق احسان عباس ، نشر مكتبة الخانجي بمصر .

ابن النديم : الفهرست ، نشر فلوجل .

أدهم ، اسماعيل: سعد زغلول للعقاد ، مقال بمجلة الامام العدد الثامن ١٩٢٦ .

أدهم ، علي : على هامش الأدب والنقد ، دار الفكر العربي بمصر .

بدوي ، عبدالرحمن: الموت والعبقرية ، مكتبة النهضة ١٩٤٥ .

بروكلمان ، كارل : ما صنف علماء العرب في أحوال أنفسهم ـ بحث في المنتقى من دراسات المستشرقين ترجمة صلاح الدين المنجد ، لجنة التأليف ١٩٥٥ .

حاجي خليفة : كشف الظنون . ط. الآستانة .
روزنتال ، فرانتز : الترجمة الذاتية عند العرب (انظر الموت والعبقرية) .
السحرتي، عبد اللطيف : فن التراجم مقال بمجلة الميزان عدد: ١٥.
السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ط. القدسي .
السخاوي : الجوهر والدرر (مضمن في كتاب روزنتال Mus. Historiography) .
عباس ، احسان: المرحوم أحمد أمين - طريقته في الكتابة والتأليف ؛ مقال بمجلة الابحاث ، كانون الأول ١٩٥٥ .
عبود ، مارون : أحمد فارس الشدياق ، مقال بمجلة المكشوف عدد : ١٧٠ .
الغضبان ، عادل : فن التراجم ، مقال بمجلة الكتاب ، ابريل ١٩٤٩ .
فارس ، فليكس : رسالة المنبر (لم يذكر متى طبع واين) .
قطب ، سيد : كتب وشخصيات ، مطبعة الرسالة بمصر ١٩٤٦ .

٤ ـ المراجع الافرنجية

Brown, F. : Highlights of Literature (Part V On History and Biography) - Mentor Book, 1954.

Clark, A. : Studies in Literary Modes, (Lond. 1946).

Collingwood R. : The Idea of History (Oxford 1946).

Collins, J. : The Doctor Looks at Biography, (New York 1955).

Conolly, F. The Types of Literature, (New - York1955).

: Encyclopaedia - Britannica (Biography).

: Ency. of Islam (Sira).

Frankfort, H. : The Birth of Civilisation in the Near East, (3 rd impression. Lond. 1954).

Hayward, J. : Prose Literature Since 1939.

Maurois, A. : Aspects of Biography (New York 1929).

Nicolson, H. : The Development of English Biography, (3 rd impresion, Lond. 1947).

Pryce - Jones, A. : Prose Lit. 1945 - 1950.

Rosenthal, F. : A History Of Muslim Historiography (Leiden, 1952).

Shipley, J. : Dictionary Of Literary Terms (cf. Biog. Autobiog. Confession) - Lond. 1955.

Shotwell, J. F. : The History of History, vol. I (New York 1939).

Spengler, O. : The Decline of the West, 2 vols.

Stauffer, D. : The Art of Biography in Eighteenth Century England, (Lond. 1941).

Toynbee : A Study of History, vol. I (2 nd ed. 1935).

Warren & Wellek : Theory of Literature, Chap. VII.

Woolf, V., : The Art of Biography (in « The Death of the Moth » and in « The Types of Lit. » pp. 638 seq.).

فهرست الاعلام

ب

فهرست الموضوعات